

التربية الدينية والاجتماعية للأطفال

إعداد

بلفيسر اسماعيل حارسناني

مكتبة العبيكان

ردمك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التربية الدينية للأطفال

التربية الدينية

١ - ماهية التربية الدينية :

تهتم التربية الدينية بترويض الإيمان بالله في نفوس الأطفال ، وبالإسلام خاتم رسالات السماء ، وبما أقره الدين من مكانة الإنسان في الوجود وفي المجتمع . كما تهتم التربية الدينية بغرس القيم الإنسانية النبيلة التي نادى بها الدين الإسلامي الحنيف في نفوس الأطفال ، وتنشئتهم على الأخلاق الفاضلة ، وعلى المحبة والتعاون بين أفراد المجتمع وعلى الحق والخير والصالح .

ولتحديد ماهية التربية الدينية نتطرق إلى توضيح معنى الدين ، وعلاقة الدين بالارتقاء العقلي والاجتماعي ، وعلاقة الدين بالأخلاق ، وأخيراً أهمية التربية الدينية وأهدافها .

١-١ معنى الدين :

هو الاستسلام والخضوع والانقياد لله .

١-١-١ المعنى اللغوي للدين :

يشق الدين في اللغة من الفعل دان ، ومعناه خضع وأطاع . وفي اللغة دان يدينه أي «ملكه وحكمه ، أو ساسه ودبره ، أو قهره وحاسبه ، أو جازاه وكافأه» . وعبرة يوم الدين على سبيل المثال تعني «يوم الحساب والجزاء» . ويقال دان فلان لفلان أي خضع له وأطاعه ، ويقال دان فلان بكذا أي اعتقده واعتاده واتخذه مذهباً له .

ومن هنا كان الدين لغة يعني «العادة والشأن» لأن الهدف النهائي للدين هو أن يتحول إلى مجموعة من السلوكيات التي يعتادها الإنسان . فالدين هو السلوك اليومي للإنسان يتم في إطار عقدي وفكري معين . ومن ثم يكون الدين هو «كل تلك الأعمال والمشاعر والمعتقدات التي تتعلق بعمل الإنسان وما يراه واجبا عليه نحو ربه» .

وجاء في المعجم الوسيط أن الدين «ما يتدين به الإنسان . وهو الاعتقاد بالجنان . والإقرار باللسان ، وعمل الجوارح بالأركان» . ويحدد الدين بأنه : العادة ، والسيرة ، والحال ، والشأن ، والورع .

١-١-٢ المعنى الاصطلاحي للدين:

لا يبتعد المعنى الاصطلاحي للدين عن معناه اللغوي ، وإنما يقوم عليه إلى حد بعيد . فالمعنى الاصطلاحي للدين هو «الإيمان بشيء معين ، والسير على هداة» . أي أن الدين هو المسلك الذي يسلكه الفرد روحاً وعقلاً وجسداً بصورة منتظمة تعكس إيمانه -على نحو معين- بالحياة ونظرته إليها .

ويرى دور كايم أن الدين : «نظام موحد من العقائد والعبادات المرتبطة بالأشياء المقدسة» . ويفرق دور كايم بين العقائد والعبادات ، فيرى أن العقائد عبارة عن «حالات فكرية أو مجموعة من التصورات الذهنية» ، على حين أن العبادات «مجموعة من المبادئ العملية التعبدية» .

وتختلف العقيدة الدينية عن فلسفة الحياة ، ذلك أن الفرد أو المجتمع يستطيع أن يتوصل إلى فلسفة معينة للحياة من خلال المحاولة والخطأ أو استجابة لضغوط الحياة . أما العقيدة الدينية فأمر يتصل بالكيان الميتافيزيقي للإنسان . فالإنسان مزود بحاسة روحية ، ولديه إيمان فطري بوجود قوة خفية تسيطر عليه وعلى الحياة من حوله .

والإيمان الفطري لدى الإنسان يعود إلى إحساس البشر بحاجتهم إلى الرب الخالق . وهذا الإحساس فوق مستوى العقل البشري حيث إن معرفة العقل البشري لا تتعدى عالم الحس ، وليس في مقدوره أن يعرف -عن طريق مباشر- العالم الذي فوق المحسوس وما وراء الطبيعة ، وإن كان في مقدوره -بالمقارنة والقياس- أن يستمد معرفة غير مباشرة بوجود الله ، ويدرك أنه الخالق لجميع الكائنات .

وهذا الشعور بالحاجة إلى قوة أقوى من الإنسان نتج عنه تعلق الفرد -عبر العصور- بشيء يتمثل فيه القوة سواء كانت خيرة أم شريرة . وهذا الشعور هو الذي دفع الإنسان في الجاهلية إلى عبادته لأشكال متنوعة تتمثل فيها القوة المادية . ومما تجدر الإشارة إليه أن الغالبية العظمى من سكان الكرة الأرضية لا يزالون -بالرغم من وجود الديانات السماوية- يعبدون أشياء مادية لا تنفع ولا تضر لا اعتقادهم بأنها من مصادر القوة والخير .

١-٣ معنى الدين في الشريعة الإسلامية:

يرى علماء الدين الإسلامي أن الدين : هو مجموعة من العقائد والقواعد والأحكام التي شرعها الله لعباده باختيارهم الرشيد الحميد إلى ما ينفعهم وتصلح به حياتهم .

ويميل بعض علماء المسلمين إلى تعريف الدين بأنه : الإيمان والاعتقاد بوجود ذات غيبية علوية، لها شعور واختيار، ولها تدبر وتصرف وتحكم في الشؤون التي يعنى بها الإنسان .

كما يعرف البعض الآخر الدين بأنه : نظام إلهي يرشد إلى الحق في العقيدة، والخير في السلوك والمعاملات .

وقد فسر الدين بمعنى الشريعة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ . وفسر الدين بمعنى الطاعة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ .

والطاعة هنا تعني الانقياد مع الرضا والتسليم، فالرضا عنصر ضروري لتحقيق معنى الطاعة ومعنى الدين، والدليل على ذلك قوله جل جلاله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ .

ومن ثم نجد أن مفهوم الدين الذي يتفق مع الشريعة الإسلامية هو: إيمان صادق بالله، وبكل ما أمر به وما صدر عنه، وعمل بمقتضى هذا الإيمان يقوم على طاعته، وثقة مطلقة بأن المصلحة فيما شرعه من أحكام وقوانين في العبادات والمعاملات .

١-٢ الدين والارتقاء العقلي والاجتماعي:

يهتم الدين الإسلامي -الذي جاء هداية للبشر جميعاً- بالحث على تعليم الأطفال تعاليم الدين منذ طفولتهم المبكرة، وتوجيههم إلى ضرورة استخدام العقل في التفكير فيما حولهم ليهتدوا إلى الخالق عز وجل .

لما كانت الأصول الدينية عبارة عن مجردات؛ فإنها تحتاج من أجل فهمها إلى بعض القدرات العقلية العليا القادرة على التفكير والتخيل والتصور .

والأطفال في سنواتهم الأولى وحتى العاشرة من أعمارهم ليست لديهم القدرة على التفكير المجرد، وإنما يكون تفكيرهم حسيّاً، وكلما تقدم الأطفال في العمر يميل تفكيرهم إلى الموضوعية، ويصبحون أكثر قدرة على فهم المجردات، وهكذا يأخذ الدين مكانته في عقولهم .

وعلاقة الطفل بالدين في الطفولة المبكرة علاقة نفعية لطرف واحد هو الطفل نفسه . أي أنها علاقة أنانية . وكلما تقدم الطفل في العمر وزادت قدراته

على التفكير الموضوعي، يخرج من حدود ذاته الضيقة، ويتمكن من الربط بين ذاته وبين العالم في آن واحد.

وبانتقال الطفل إلى مرحلة فكرية أكثر موضوعية، وإلى مرحلة اجتماعية أكثر نضجاً، يتمكن الطفل من إدراك أن الله هو رب العالمين، وليس ربه وحده. ويصبح الطفل مع الارتقاء العقلي والاجتماعي أكثر قدرة على إدراك أن الدين الذي يعتنقه - وهو دين أسرته - يعتنقه أطفال آخرون في أسر أخرى، وأن هناك أسراً غيرها في المجتمعات الأخرى تتبع الدين نفسه أو أدياناً أخرى.

ويدرك الطفل في طفولته المتأخرة أن الخالق لجميع الكائنات واحد أحد، لا يتعدد ولا يتحول، ولا يحيط به زمان. والدليل على ذلك أن سر العالم الموحد يكشف لنا عن وجود عقل واحد وقانون واحد.

ومن خلال الدين تنتظم علاقة الطفل بغيره من الأطفال، وتنتظم العلاقة بين الله والإنسان، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، وبين الإنسان وجميع الكائنات على وجه الأرض. إذ أن من طبيعة الدين تنظيم العلاقة بين المرء والوجود بأسره.

١-٣ الدين والأخلاق:

ترتبط الأخلاق بالدين ارتباطاً وثيقاً، إذ تتفق الديانات على أهمية الأخلاق. فالأخلاق دعامة كل نهضة وتقدم وحضارة. وهي الحارس الذي يحمي المجتمعات من الانهيار، والانحلال والضياع. ويؤكد ويلز Wells أهمية الأخلاق بقوله: «لو بذل الإنسان في سبيل السيطرة على كبح جماح نفسه بعض ما بذله من الجهد في السيطرة على قوى الطبيعة، لكان عالمنا اليوم عالم طهارة وسعادة». فعلى الرغم من التقدم الإنساني الهائل، وعبقريته الواضحة في النواحي المادية، إلا أنه ما زال غير متزن من الناحية الخلقية.

١-٣-١ معنى الأخلاق:

انقسم العلماء شيعاً وأحزاباً في تناول موضوع الأخلاق ووضع تعريف محدد له. فذهبت مدرسة الوجدان: إلى أن الأخلاق مستمدة من العاطفة، وذهبت مدرسة الإدارة. إلى أن الأخلاق نتاج من قوة العزيمة والصلابة، وزعمت مدرسة الذكاء: أن الأخلاق نتيجة التفكير والعقل.

فالخلق القويم من وجهة نظر مكدوجال McDougall عبارة عن: «نظام تصاعدي متكامل من العواطف تسيطر عليه سيدة العواطف» وتكون نتيجة تلك السيطرة تكامل الأخلاق.

ويرى باجلي Bagley أن الخلق عبارة عن: «كثير من العادات الصالحة النافعة» فأساس الخلق في نظره هو العادات المفيدة.

أما ديوي Dewey فيعرف الخلق بأنه: «كل ما ينطوي عليه العقل من عمليات الإمعان أي الموازنة والتروي والرغبة (الدافع) سواء أكانت هذه العمليات قريبة أم بعيدة».

أما كلباترك Kellpatrick فيرى: أن هناك ثلاثة أشياء مهمة في كل عمل خلقي هي: الحساسية لما يحتمل أن يتضمنه موقف ما، والروية والإمعان فيما يجب عمله، والرغبة الملحة في تنفيذ العمل.

فالحساسية نحو موقف من المواقف تتضمن إدراك الموقف ورؤية العوامل التي يتضمنها والعواقب الممكنة أن تنتج عنها، ثم اتخاذ قرار معين يتوقف على معلومات الشخص وتجاربه ومعرفته ونوع تفكيره وذكائه. أما التروي فيتطلب أن يكون للفرد هدف معين وأن يكون قادراً على التبصر في الأمور.

ومن التعريفات السابقة نجد أن معظم المفكرين على أن الخلق يؤدي إلى

الوظائف التالية:

- أ- يجعل سلوك الإنسان متصفاً بالثبات والتماسك والتوافق والاضطراد .
- ب- يمكن التنبؤ بتصرف الشخص وسلوكه في المواقف المختلفة .
- ج- يجعل الفرد يتجه بانتظام وباستمرار نحو غاياته العظمى ، فيبذل جهده ويثابر في سبيل تحقيقها .
- د- يمكن الفرد من اختيار المسلك المستقيم في أي موقف من المواقف مهما يكن الاختيار قاسياً والمسلك صعباً . فالخلق يعطي قوة في الإرادة وفي العزيمة .
- وهكذا يتضح أن الأخلاق نظام معقد للغاية ، ينمو ببطء ، وتدخل فيه مركبات متعددة كالعرائز والعادات والعواطف ، ويتألف من تفاعل عوامل كثيرة في الحياة يقف الدين على رأسها .

١-٣-٢ الدين الإسلامي والأخلاق:

الأخلاق الإسلامية منبعثة عن العقيدة الإسلامية السمحاء التي تحدد للمسلم السلوك الأخلاقي ، والقيم الاجتماعية السوية ، والسنن الحميدة . ومن هنا فالأخلاق لا تملئها المصلحة ، أو تسيرها المنفعة ، فإذا ما انتهت هذه المصلحة أو تحققت المنفعة انتهت الأخلاق . وإنما الأخلاق الإسلامية ثابتة ، والقيم الإسلامية لا تتغير ، لأن المسلم يتلقى الأوامر والنواهي من الله سبحانه وتعالى .

والله عز وجل خاطب رسوله الكريم محمداً ﷺ قائلاً: ﴿وَأَنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ، وحينما يقف الرسول ﷺ لتوضيح جوهر دعوته يعلن أنه بعث مؤدباً فيقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

ثم جعل الرسول عليه الصلاة والسلام المتخلقين بالأخلاق الفاضلة أحب الناس إليه . وأقربهم منه درجة في قوله: «إن أحبكم إليّ ، وأقربكم مني منازل يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً» .

وهكذا نجد أن الدين الإسلامي دعامته الأولى الأخلاق الحسنة، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام أدخل مفهوم الأخلاق في مفهوم الإيمان حيث قال عندما سئل: أي الإيمان أفضل يارسول الله؟ فأجاب: «خلق حسن»، وقال أيضاً: «خير ما أعطي الناس خلق حسن»، وقال ﷺ: «إن أفضل شيء في الميزان الخلق الحسن»، كما فاضل عليه الصلاة والسلام بين الناس بالخلق الحسن فقال: «إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً».

ويبين القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة جملة الأخلاق الصالحة، والآداب الحميدة، بصورة واضحة لا غموض فيها، ليكون المجتمع المسلم مجتمعاً متماسكاً أفراداً وجماعات، وليحفظ للمجتمع المسلم شخصيته المتميزة بين المجتمعات الأخرى.

فالإسلام يدعو إلى الصدق، والبر، والعدل، ومعرفة الواجب، وأداء الحق، والحلم، والحياء، والصبر على البلاء والشدة والمصيبة، والشجاعة، والعزة، والتواضع، والرحمة، والشفقة، والوفاء، والعفة، وصلة الرحم، ورعاية حق الجار، وصون اللسان، وعمل المعروف، وعيادة المريض، وإغاثة الملهوف، ورعاية الفقراء. كل هذه الأمور التي دعا إليها الإسلام ووضحها تشكل المقومات الأخلاقية بمفهومها الإسلامي التي أوجب الدين العمل بها.

أما الأشياء التي تتعارض مع الأخلاق الإسلامية، فقد أمرنا الدين بالابتعاد عنها لأنها تعمل على هدم جوانب الأخلاق لدى الإنسان، ومنها: الكذب، وشرب الخمر، والحسد، والزنا، والربا، والظلم، وشهادة الزور، والإفساد في الأرض، وما إلى ذلك من الأشياء الذميمة التي ينبغي على المسلم أن يتجنبها.

ويرى معظم فلاسفة المسلمين أن الخلق: حال أو هيئة للنفس تصدر عنها الأفعال بلا روية ولا تدبير، فالإحسان ميل نفسي يحمل صاحبه على البذل

والعطاء في جميع الظروف من غير روية ولا تفكير. ومن أعلام هذا الرأي الغزالي وابن مسكويه.

١-٣-٣ الأخلاق والسلوك:

الخلق الفاضل يدفع صاحبه إلى أن يسعى ويعمل بعقل وروية على تخير الوسائل التي يدرك بها الغرض الأسمى. فالأخلاق هي: مجموعة رغبات الفرد وميوله الفعالة التي تجعله دائما على استعداد للإتيان ببعض الأفعال، ومغرمًا ببعض النتائج، وفي الوقت نفسه كارها لبعض الأفعال والنتائج الأخرى.

وفي الفضيلة يتطور الأمر إلى صراع عنيف بين الدافع للعمل، وبين نتيجته، أو بين الخلق والسلوك. فالخلق شيء باطني في الإنسان، لا علاقة له إطلاقا بالبيئة إلا عن طريق شيء آخر هو السلوك. والناظر إلى الإنسان لا يرى الأخلاق، وإنما يشاهد العمل أو الفعل. فالأخلاق هي السبب، والسلوك هو النتيجة. وهذه هي وجهة نظر الفلسفة الثنائية التي ابتدعها ديكارت.

أما أنصار فلسفة الوحدة فيرون: أن الغاية والوسيلة شيء واحد. فالغاية هي آخر عمل يفكر فيه الإنسان، والوسائل هي الأفعال التي تسبق ذلك الفعل في الترتيب الزمني.

فالغاية والوسيلة في الأخلاق اسمان لشيء واحد، ولا يمكن أن يوجد بينهما تباين. فالأخلاق ليست وسيلة إلى خير الجماعة فقط، ولكنها غاية في حد ذاتها. وفي ذلك يرى جون ديوي أن: «الغاية البعيدة ما هي إلا وسيلة في الزمن الحالي. والفعل في الزمن الحاضر ليس سوى وسيلة لغاية بعيدة».

والتربية بلا شك تكون ناقصة إذا اهتمت بكل شيء وتركت الأخلاق. فالتربية الكاملة هي ما اتخذت الأخلاق أساسا لها. فالتربية تهدف إلى تهذيب الأخلاق.

والاتجاه الخلقي للتربية واضح عند فلاسفة المسلمين، وجعلهم يؤكدون أن أبرز أغراض التربية هو تهذيب النفوس، وتحصيل الفضيلة، ويرى الغزالي: أن الفضيلة، والتقرب إلى الله تعالى أهم أغراض التربية، ويشهد على ذلك قوله: «الخلق الحسن صفة المرسلين، وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدين، وثمره مجاهدة المتقين، ورياضة المتعبدين».

٢- أهمية التربية الدينية وأهدافها:

لما كانت قوة الدين لا تضارعها قوة العصبية، ولا قوة الوطنية، ولا قوة العرف، ولا قوة الأخلاق، ولا قوة الشرائع والقوانين، فإن المجتمعات تحرص على تنشئة أطفالها تنشئة دينية تدعم إيمانهم بالله الخالق، وتغرس فيهم الأخلاق الفاضلة.

والتربية الدينية الإسلامية تعنى بتنمية الشخصية القوية المفكرة الصالحة الواعية التي تعمل من أجل دينها، ومن أجل تزويد الناس بالمعارف والعلوم المتعلقة بشؤون الدين والدنيا، ومن أجل خير الإنسان في الدنيا والآخرة.

٢-١ أهمية التربية الدينية والخلقية للأطفال:

أهم الاعتبارات الأساسية التي تستمد منها التربية أهميتها وخاصة في مرحلة الطفولة ما يلي:

أ- ما أقره الإسلام من عقيدة التوحيد باعتبارها أعلى ما بلغه التصور لله وصفاته السامية وأسمائه الحسنى، ومن تنظيم حياة الإنسان وحياة المجتمع. ومن هنا فالتربية الدينية للأطفال تغرس فيهم التمسك بالعقيدة الإسلامية باعتبارها مصدر الخير والقوة في تاريخ البشرية.

ب- الحاجة الأصلية في النفس البشرية إلى العقيدة الدينية . فالإيمان لازم في حياة الإنسان . ومصدر من مصادر القوة والاطمئنان . وهذا ما تؤكدته الدراسات النفسية والفلسفية والأنثروبولوجية .

ج- ما تشكو منه الحضارات المعاصرة من المساوئ والعيوب الناتجة عن ضعف التمسك بالقيم الدينية، وبفضائل الأخلاق، والاتجاه إلى التبذل والتحلل والانغماس في الشهوات، مما يصدر في أغلب الأحوال عن ضعف في العقيدة الدينية ونقص النوازع إلى الإيمان .

وهنا تتصدى التربية الدينية إلى التهاون في أمور الدين ، وتغرس في نفوس الأطفال والشباب -على السواء- مكارم الأخلاق، وتجنب الشباب -بصفة خاصة- الحيرة الفكرية تجاه ما يسود العالم من تيارات فكرية مضادة -في أغلب الأحيان- للدين والتدين .

وتكمن أهمية التربية الدينية في بلوغ الكمال الإنساني بالتدرج . ذلك أن التربية نفسها عملية أخلاقية ، وأن اكتساب الأخلاق والتحلي بالفضائل ، والترفع عن الرذائل ، عملية تحتاج إلى وقت حتى يكتسب الفرد أنماط السلوك المرغوب . والإسلام في تربيته للمسلمين الأوائل لم ينتقل بهم طفرة من أخلاق الجاهلية إلى الأخلاق الإسلامية ، وإنما تدرج معهم حتى تؤتي التربية ثمارها .

وقد اهتم الإسلام بتنشئة الطفل منذ ولادته ، وفي ذلك يشير الغزالي إلى أهمية المرضعة ، وأثر لبنها على أخلاق الطفل الرضيع ، فيقول : «فلا يستعمل في حضائنه وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا رفع عليه نشوء الصبي تعجنت طينته من الخبث ، فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث» .

ويميز علماء المسلمين بين مرحلتين رئيسيتين في التربية الأخلاقية للطفل هما: مرحلة التخلية، ومرحلة التزكية. والمرحلة الأولى (مرحلة التخلية) تعني تخلي طبع الطفل من كل رذيلة. وإبعاده عن كل مؤثرات الشر والسوء، وعدم مخالطته لقرناء السوء. وقد نهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن قرناء السوء فقال: «إياك وقرين السوء». وقال ﷺ: «لا تصاحب الفاجر فتعلم منه فجوره». أما المرحلة الثانية (مرحلة التزكية) فيقصد بها تخلية الطفل بالفضائل الكريمة، والأخلاق المحمودة وذلك من خلال تشرب الطفل لهذه الأخلاق، واكتساب العادات الحسنة من مخالطته للقدوة الصالحة.

٢-٢ أهداف التربية الدينية والخلقية للأطفال:

لا شك أن التربية الجسمية والعقلية والاجتماعية والخلقية والروحية تستهدف جميعها تكوين شخصية سوية. وأن المربي يستهدف من وراء عملية التربية بجوانبها المختلفة إحداث تغيرات سلوكية معينة في الأطفال. ويمكننا تحديد أهداف التربية الروحية في مرحلة الطفولة فيما يلي:

أ- إيقاظ إحساس الأطفال بقدرة الله: ويتم ذلك عن طريق تشجيع ميل الأطفال التلقائي إلى استطلاع عجائب الكون التي تدل على عظمة الخالق وعلى بديع صنعه، ومن خلال إجابات الكبار بصدق وأمانة عن أسئلة الأطفال. بالإضافة إلى ملاحظة الأطفال لنمو النباتات والحيوانات التي يقومون بتربيتها.

ب- تنمية إيمان الأطفال بالله خالق الكون: ويتم ذلك من خلال تحفيز الأطفال بعض السور القصيرة، وتعويدهم شكر الله على نعمه، ودعاء الله كل صباح، هذا بالإضافة إلى اصطحاب الأطفال إلى بيوت الله ومشاهدة صلوات الكبار واستماعهم إلى قصص الأنبياء وبطولات المسلمين.

ج- استشارة عاطفة التراحم والشفقة: ويتم ذلك من خلال زيارة بعض المؤسسات الاجتماعية التي ترعى الفقراء والضعفاء، وحث الأطفال على تقديم الهدايا لنزلاتها، والتصدق بالمال أو الطعام أو الملابس. وتعويد الأطفال مساعدة من يطلب العون.

د- تغذية النزعة الجمالية في الأطفال: وذلك بإتاحة الفرصة لاستمتاع الأطفال بمشاهدة الطبيعة وتذوق ما فيها من جمال، وتشجيع تعبير الأطفال الحر في مجالات الفنون المختلفة التي تثير فيهم إحساساً بالخالق ملهم البشر.

هـ- مساعدة الأطفال على تطبيق القيم الإسلامية: وذلك من خلال ممارسة العادات الصحيحة في حياتهم اليومية، وتمييزهم بين الصواب والخطأ، واحترام قواعد السلوك الإسلامي في معاملاتهم.

٣- القابليات الدينية :

مع أن الاهتمام بخبرات الطفولة الأولى في المجتمعات الإنسانية اهتمام قديم، ويكاد يكون اهتماماً فطرياً، إلا أنه اتخذ في العقود الأخيرة من القرن العشرين شكلاً متخصصاً وطابعاً منظماً. فقد تحول الاهتمام بخبرات الطفولة الأولى من اهتمام عام فطري إلى اهتمام علمي على يد مجموعة من علماء النفس والتربية.

ولكي نعطي صورة واضحة عن القابليات الدينية والخلقية فإننا نناقش أولاً معنى القابليات، ثم نتطرق إلى تحديد قابليات التدين وقابليات الحاسة الأخلاقية.

٣-١ معنى القابليات:

على الرغم من انتشار مجموعة من المصطلحات العلمية مثل القدرات، والإمكانات، والاستعدادات، في استخدامات علم النفس، إلا أن مصطلح

القابليات حديث الاستخدام . ويرى سيد عثمان أن القابلية : «أكثر مناسبة للدلالة على إمكانات الفطرة الإنسانية والطاقة الكامنة فيها» . وكلمة الفطرة نفسها فيها معنى الابتداء . وقد روي عن ابن عباس -رضي الله عنه- قوله : «كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي أنا ابتدأتها» .

والقابليات البدنية في فطرة الإنسان تكاد تتركز في ناحيتين : أولهما قابليته لانتصاب القامة ، والأخرى قابليته لاستخدام الإبهام مع سائر أصابع اليدين . أما القابليات المعرفية المغروسة في فطرة الإنسان فهي قابلية اللغة . فاللغة هي الوعاء الذي يرى فيه الإنسان ذاته فيرى غيره ويرى الجماعة . ويؤكد طولمان Tolman أن اللغة هي القوة الوحيدة للكائن الحي ، فالكلام هو المميز الأول والأكبر للإنسان .

ولعلنا لا نجد عبارة تبين مكانة قابلية الطفل البشري لاكتساب اللغة أفضل من عبارة مكينل Mcneil التي يقول فيها : «إن دراسة اكتساب اللغة قد تعطينا بصيرة في أعماق أسس الحياة العقلية عند الإنسان» .

وأيضاً مما تنفرد به فطرة الإنسان المعرفية قابليات التجريد ، وهي التي تحرر الإنسان من المادي المحسوس ، وتحرر الفكر الإنساني من قيد المكان وأسر الزمان . فبتوفيق من الله وهدايته صنع الإنسان الرمز ، ثم اللغة متدرجاً من قابليات التجريد . وعندما توج الإنسان وجوده العقلي باللغة ازداد قوة وحرية .

وهكذا تعد قابليات التجريد أساس حرية الإنسان ليس فقط معرفياً ، وإنما تحرر النفس عامة : وجدانياً ، وذوقياً ، وأخلاقياً . وساعدت قابليات التجريد على أن تكسب الإنسان مرونة معرفية ، وقدرة على التوجيه الذاتي .

وفطرة الإنسان غير محدودة بقيود . ففيها قابليات البقاء الفردي والارتقاء الذاتي ، وقابليات الوجود الاجتماعي والارتقاء الثقافي ، ذلك أن وجود الإنسان ليس وجوداً فردياً منعزلاً ، وإنما هو في صميمه وجود اجتماعي . وفي فطرة الإنسان قابليات تجعل وجوده الاجتماعي ممكن التحقيق والتسامي .

ولعل أول القابليات الاجتماعية والأخلاقية وأوسعها حدوداً وأشملها هي قابلية الفطرة الإنسانية للتعاطف . أي قدرة الإنسان على أن يضع نفسه شعورياً تصورياً موضع الآخر ، وأن يتخذ انفعالياً موقف الآخر ، ويتمثل مشاعره وأحاسيسه في موقف ما . والتعاطف (المشاركة الوجدانية) هو أساس الحياة الاجتماعية نشأة وتطوراً واستمراراً .

وبالإضافة إلى القابليات الجسمية والمعرفية والاجتماعية هناك القابليات الجمالية . أي قابليات تذوق الجمال وهي الرقة ، والعدوبة ، والمرونة ، والتنوع ، والتجدد ، والاستثارة ، والإقبال على الحياة . وإذا كانت القابليات الأخلاقية تتجه إلى الواجب والخير اتجاهاً حدسياً ، فإن القابليات الجمالية تنجذب نحو الجميل والبهيج انجذاباً تلقائياً ، كما تتوجه القابليات الدينية إلى الجليل الأعلى توجهها عبودياً .

وبعد هذه الأمثلة لتوضيح مفهوم القابليات ، وتحديد أنماطها سوف نناقش تفصيلياً فيما يلي القابليات الدينية والقابليات الأخلاقية .

٣-٢ قابليات التدين:

مما لا شك فيه أن الإنسان لم يخلق عبثاً ، ولم يخلق ليترك سدى . خرج آدم من الجنة إلى كون محكم منتظم متناغم متوازن ، كون كل ما فيه متناسق متكامل . والله خلق الإنسان ليكون خليفة في الأرض ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ

رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٦٦﴾ . والله جلّت قدرته خلق الإنسان ليعبده، قال عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .

وهكذا خلق الله فطرة الإنسان لتكون مستعدة ليقظة وعي شاملة، يقظة كونية مجاوزة لحدود الزمان والمكان، يقظة تهيء الإنسان لتلقي نداء الغاية . وتستجيب لدعاء الحركة . وهاتان الخاصتان : الاستعداد لوعي متجاوب مع الكون وما وراءه ، والاستعداد لحركة دائبة متصلة متسامية في الكون هما المميزان الرئيسيان للقابليات الدينية في عمومها .

فعن طريق اليقظة الواعية تدرك الفطرة إدراكاً مباشراً أنها ليست ضائعة، وإنما تحس بالاتناس بخالق قادر مهيمن عليم خبير . وبذلك تطمئن النفس البشرية اطمئناناً مباشراً إلى غاية وجودها وقصده .

ومن خلال استعداد فطرة الإنسان للحركة المتسامية، تتحرك النفس البشرية شوقاً إلى التزكية حركة مطمئنة واثقة . ثابتة تدفع بها دائماً إلى التسامي .

٣-٢-١ قابليات التدين والقابليات الأخرى:

قابليات التدين ليست غريبة عن قابليات الاجتماع والأخلاق والتذوق والجمال ففيها عناصر من كل منها . ومع تشابه قابليات التدين وتشابكها مع تلك القابليات ، إلا أن لها تميزها الخاص وتفرداً من حيث طبيعتها وعناصرها وأنشطتها .

وتتشابه قابليات التدين والقابليات الاجتماعية في أمرين هما :

أ- مجاوزة الذات: فالقابليات الاجتماعية تجاوز الذات بالتعاطف ، أما القابليات الدينية فإنها تجاوز الذات بالوعي المتجاوب الشامل الممتد خارج الذات في الكون .

ب- التوجه العام نحو وجود أعلى: فالقابليات الاجتماعية تجعل النفس البشرية تتجه إلى وجود مجرد تحتكم إليه الذات في ميزانها الأخلاقي الداخلي . وفي القابليات الدينية تتجه الفطرة إلى بارئها بالعبودية وإسلام القلب والاحتكام إلى ما يأمر به وينهى عنه .

وتلتقي قابليات التدين مع القابليات الجمالية في أمرين أيضاً هما :

أ- النزعة إلى الانتظام الحر: وهذه النزعة توحى بالوعي الإنساني الشامل لما وراء هذا الانتظام . فيقظة الإنسان تقف به على مشارف الانتظام الحر ليتطلع إلى ما وراء المعنى من وجود خالق مدبر أتقن كل شيء صنعا وأبدعه جمالاً .

ب- النزعة إلى الإكمال النامي: وتتشابه في ذلك القابليات الدينية والجمالية ، ففي كل منهما نجد النزوع إلى الإكمال النامي في اتجاه الفطرة إلى وجودها الأعلى وتحركها نحو ذاتها المثلى .

وهذا التشابه بين نسيج قابليات التدين والقابليات الاجتماعية والجمالية يمكن أن يتكرر أيضاً في العمل والتفاعل . فالقابليات الدينية تعمل مع القابليات الاجتماعية والجمالية وتتفاعل في حركة متسقة يجاوب بعضها بعضاً ، وينمي بعضها بعضاً من أجل سمو وسلامة الوجود المعنوي للإنسان : وجوده الديني والجمالي والاجتماعي .

غير أن قابليات التدين وإن كانت تعمل وتتفاعل في تشارك مع القابليات الاجتماعية والجمالية . إلا أنها قد تعمل مستقلة عنها أو عن إحداها إما بالانفصال أو بالحركة المستقلة . ونجد ذلك واضحاً في تفاعل الذاتية العميقة في الوجود الذي يؤدي إلى الحس العبودي ، وفي اتجاه الذاتية العميقة نحو التزكية الذي يؤدي إلى التسامي .

ومن ناحية أخرى قد يكون عمل القابليات الدينية عمل توجيه وريادة لعمل القابليات الاجتماعية والجمالية، مما يؤدي إلى هيمنة القابليات الدينية ليس فقط على القابليات الاجتماعية والجمالية، وإنما على جميع قابليات الفطرة.

٣-٢-٢ عناصر قابليات الدين:

يمكننا أن نحدد ستة عناصر تُكوّن القابليات الدينية، وتجعلها متميزة عن غيرها من القابليات الأخرى تميزاً واضحاً في البنية والنشاط. وفيما يلي نناقش هذه العناصر.

أ- الإحساس بوجود وراء الوجود: أي الإحساس اليقيني بوجود وراء الإيمان (غيب وراء المشهود). وهذا الوجود مجاوز لقدرة الحواس، وخارج عن حدودها، ويسير معانقاً لهذا الإحساس شعور آخر بأن بين الغيب والشهادة صلات من نوع ما. فالغيب هنا ليس منعزلاً، وإنما هو غيب حاضر موصول متواصل في إدراك البصيرة.

ب- الإحساس بالقداسة: أي الإحساس الذي يؤدي إلى قشعريرة الروح أمام القدرة والحكمة والتدبر والجلال في الجمال. ذلك الإحساس الذي يؤدي إلى خشوع الروح رهبة، وتطلع الفؤاد رغبة، وهذا الإحساس يعكس حيرة الفكر، وقرار القلب، وذوبان الرهبة في الهيبة.

ج- إحساس الهيمنة: أي الإحساس بتوجيه التدبير، واحتواء القدرة. بمعنى: إحساس القلب بأنه في وعاء نوراني يحتويه ولا يحده، يحيط به ولا يحجزه، يوجهه ولا يقيده.

د- التصديق: ذلك الإحساس يدفع بالذات إلى التصديق بلا مساءلة أو مراجعة أو تمحيص. فالنفس تصدق أولاً ثم تحقق بعد ذلك. فكل صادق أمين يجد في

القلب ما يصدقه بدهاة، وكل صادق أمين ليس بينه وبين القلب حجاب. والصادق الأمين يتبوأ عرشه في القلب بسلطان ذاته. لذلك يتقبل القلب سيد الصدق والأمانة محمداً ﷺ الذي أوحى إليه من الغيب وبلغ الأمانة إلى كافة البشر.

هـ- الإحساس بالسند: أي الإحساس بالاطمئنان بحماية الخالق للإنسان في كافة مراحل نموه، وفي جميع مواقف حياته، وفي كافة أوقاته. ويؤدي ذلك الإحساس إلى ثقة في الصدر، ونور في القلب، ويقين في الروح بأن الله معنا. فتطمئن النفس البشرية إلى أنها ليست مخلوقة في هذا الكون بلا سند، وإنما تغمرها رحمة بالغة. فالإحساس بالسند هو شعور برعاية فكرة مهيمنة، وبتدبير حكمة قاهرة، وبعناية رحمة غامرة.

و- إحساس بالمدد: وهو طمأنينة اليقين بأن من يخلق يرزق، ومن يوجد يهدى. فإحساس المدد هو شعور متين بالثقة بأن عطاء خالق الحياة والوجود عطاء دائم واصل موصول، ينال منه كل مخلوق، ولا يحرم منه موجود. إنه عطاء جواد كريم، عطاء مستديم يستقبله الموجود بالتسبيح، وتعانقه روح الإنسان بالبهجة مهما كانت درجة إيمانه وتقواه. قال سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

وهذه الثقة بالمدد الدائم الموصول تحث الإنسان على أن يعطي الحياة كما تعطيه، أو يعطيها خير ما عنده. وهذه الثقة تجعل الإنسان يطمئن إلى أن نصيبه من العطاء واصل إليه فلا يخشى ضياع حق، وهكذا تدفع قوة اليقين، والإحساس بالعدل الإلهي إلى العمل الصالح.

والإحساس بالمدد يحفز روح الإنسان للعمل والجهد والصبر والمصابرة والشكر والحمد. وحمد الله على نعمه يبعث قوة الاستغناء الكامنة في فطرة

الإنسان، وقوة الاستغناء تعمل على تحرير الإنسان. فالحمد يبعث في النفس شعور يسري في الروح بامتلاك كل شيء وأن نصيبها من النعم نصيب حق وعدل فلا حاجة لها إلى ما وراء ما نالها، وبذلك تستغني عن كل شيء. ويصبح الحمد أقوم سبيل إلى عبودية الله وحده.

٣-٣ القابليات الأخلاقية:

لعل المصدر الذي تشتق منه قابليات الإنسان الأخلاقية هو الاستعداد الأعم لحاسة الخلق. ولكي نفهم القابليات الأخلاقية لابد لنا من مناقشة أمرين هامين هما: معنى الحاسة الأخلاقية، والخواص التي تميز الاستعداد الفطري للحاسة الأخلاقية.

٣-٣-١ الحاسة الأخلاقية:

يعرف فؤاد البهي الأخلاق Morals بأنها مركب اجتماعي مكتسب، وبذلك تعتمد التربية الأخلاقية على عمليتين رئيسيتين هما: عملية اكتساب الأفراد المعلومات، وتنمية القدرات اللازمة لإصدار القرارات الأخلاقية السوية، وعملية تحويل القرارات إلى فعل، وذلك عن طريق إثارة الحافز المناسب.

ويذكر فؤاد أبو حطب وآمال صادق اتجاهات الباحثين في تناولهم للسلوك الأخلاقي:

أ- السلوك الملاحظ: وهنا يركز الباحثون على ما إذا كان الطفل يظهر السلوك الخلقي مثل: (الأمانة، العدل) أم لا.

ب- نمو الشعور بالذنب: وهو يتمثل في سلوك نقد الذات وعقابها المصاحب للقلق والأسف الناجمين عن خرق قاعدة أخلاقية.

- النمو الخلقي من حيث التوقيت والمؤثر الأول:

يذكر Katfy أن أساس النمو الخلقي للكبير يبدأ عبر سنوات عمره الخمس الأولى، وذلك عن طريق التوجيهات والاشتراطات التي يغرسها فيه الوالدان أولاً، فاعتباراً من ٣-٥ سنوات يأخذ هذا النمو في الازدياد متخذاً من سمات التصرف الأخرى نماذج له يحتذيها وخاصة أن بذور الإدراك المعنوي للطفل لم تنضج بعد ولم تصل إلى مرحلة المقدرة على الإنتاج الذاتي للقيم الموضوعية الجيدة، ولذا فإنه يتخذ من تلك الأنماط والنماذج التي يغرسها فيه مجتمعه وأسرته مصدر إلهام وحيد له.

إذ يسهم في تكوين هذا الشكل النفسي كلا الوالدين، غير أن النمط الأبوي يغلب عامة في تأثيره عن النمط الآخر. إن الأب هو عادة وإلى حد ما «العرف» أو «القانون» أو «النظام» الذي يجب أن يحتذى. إنه مصدر السلطة المنفذة للعدل والقدرة التي تحتذى في النظام والانضباط، أما الأم فهي تميل إلى أن ينظر إليها على أنها المعنى المجسد للأمان الحلو المتفهم للأمور.

وحيث إن التفكير الطفولي يتسم بواقعية هشة فإنه وإلى جانب ما تقدم نجد أن تقييمه لما هو حسن أو سيئ يتوقف على الآثار الملموسة التي تنتج عن الأحداث بدلاً من أن يضع في اعتباره ما كان يقصده المحدث «الفاعل»، وهذا ما يطلق عليه «المعنوية الواقعية».

- النمو الأخلاقي Moral Development :

يعتقد طفل الخامسة أو السادسة أن القوانين التي تحدد الأفعال والتصرفات وخاصة تلك التي تنظم لعبة ما، ما هي إلا قوانين مطلقة لا يمكن تغييرها، كما يعتقد الطفل أنه إذا انتهك القانون فإنه لا بد من إيقاع العقاب بحجم المخالفة لا

بحسب طبيعة النوايا والظروف ، ففي نظر الطفل إن كسر ثلاثة أكواب من الزجاج وبطريق الخطأ والصدفة أسوأ بكثير من كسر كوب واحد عن طريق العمد والإصرار المسبق ؛ لذلك فالعقاب على الثلاثة أكواب يجب أن يكون أعظم من ذلك على الكوب الواحدة .

ويطور الطفل القدرة على الإدراك بأن الآخرين يمتلكون وجهات نظر مختلفة عن وجهة نظره من خلال تفاعله معهم ، كما يدرك أن القوانين تختلف باختلاف الناس ، وهذا يشير إلى التحول التدريجي لما يعرف بأخلاقية التعاون Morality Cooperation ، والتي تعرف بأنها المرحلة التي يدرك فيها الطفل أن الناس يضعون القوانين كما يمكنهم تغييرها ؛ لذلك فعند انتهاك أو تجاوز القانون فإن حجم الضرر والنية تؤخذان بعين الاعتبار عند تقدير النتائج التي يجب أن يتحملها المخالف للقانون . هذه التغيرات الأخلاقية وغيرها كانت موضوع نظرية لورانس كولبرج Lawarance Kholberg والتي أسندت إلى أفكار بياجيه Piaget في التطور المعرفي .

- نمو التفكير الأخلاقي:

يخضع الجانب الأخلاقي من بنية الشخصية لعملية نمو شأنه في ذلك شأن الجوانب الأخرى للشخصية ، وعملية النمو قوامها عملية استدخال Internalization للأحكام والمعايير الأخلاقية السائدة في جماعته أو مجتمعه .

والنمو الأخلاقي يعني تكوين المعايير الداخلية التي تحكم السلوك ، ويضم النمو الأخلاقي جوانب ثلاث : هي (المشاعر ، والحكم ، والسلوك) .

ويرى فؤاد أبو حطب وآمال صادق أن النمو الأخلاقي هو أحد مظاهر التطبيع Socialization وهو العملية التي يتعلم بها الطفل مسابقة توقعات الجميع والثقافة التي يعيش فيها ، إلا أنه في حالة النمو الأخلاقي لا يتعلم الطفل المسابقة

وإنما عليه أن يستوعب في داخله معايير الحكم الأخلاقي ويقبلها على أنها تمثل نظامه القيمي الشخصي .

- نمو التفكير الأخلاقي في ضوء نظرية بياجيه:

يرى جان بياجيه أن التفكير الأخلاقي يشبه في نموه وتدرجه المظاهر الأخرى للنمو المعرفي حيث يتم في مراحل Stages الواحدة تلو الأخرى ، وقد قام بياجيه Piaget بالعديد من الدراسات على الأطفال من الرابعة إلى الثالثة عشرة وحاول تفسير تلك المراحل النمائية الأخلاقية من خلال محورين :

١ - احترام الطفل للقواعد الاجتماعية.

ولدراسة احترام الطفل للقواعد الاجتماعية قام بياجيه بدراسة التزام الأطفال بقواعد لعبة ، ومن خلال نتائج أبحاثه وضع نظرية مرحلية لتفهم الطفل للقواعد والتزامه بها ، حيث يقلد الطفل من الخامسة إلى السابعة السلوك الملتزم بالقواعد ، أما الأطفال من الثامنة إلى الحادية عشرة يعتبرون القواعد غير قابلة للتغيير ، وأن أي تغيير في هذه القواعد غير عادل حتى لو وافق عليه الجميع .

٢ - إحساس الطفل بالعدالة.

ولدراسة إحساس الطفل بالعدالة كان بياجيه يذكر للأطفال قصصاً عن أشخاص يقومون بارتكاب الأخطاء .

وخرج بياجيه من دراساته وتجاربه بأن النمو الأخلاقي للأطفال يمر بمرحلتين هما :

أ- الأخلاق خارجية المنشأ Heterogamous Morality : وتستمر هذه المرحلة حتى حوالي السابعة أو الثامنة من العمر ، ويعتبر الطفل أن الفعل صواب أو خطأ تبعاً لما يترتب عليه من نتائج ، كما أن القواعد غير قابلة للتغيير ؛ لأن

الكبار هم الذين وضعوها ويقول الأطفال علينا الخضوع لها، ويحتاج الطفل إلى قاعدة لكل موقف حيث لا يقوم الطفل بالتعميم .

ب- الأخلاق داخلية المنشأ Autonomous Morality : وتبدأ هذه المرحلة في حوالي الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر ، وتعني أن معايير الطفل الأخلاقية تنبع من داخله عن اقتناع ذاتي دون فرض خارجي من أي مصدر ، ويضع الطفل في هذه المرحلة النية أو القصد في اعتباره عند إصدار حكمه على صحة فعل أو خطئه ، وتنمو لدى الطفل فكرة المساواة والعدالة ، ويرى بياجيه وتلاميذه أن تقدم النمو الأخلاقي شأنه في ذلك شأن النمو العقلي المعرفي يأخذ مساراً متماثلاً عبر الثقافات المختلفة بما يعكس التغيرات المنظمة لهذا الجانب النمائي مع تطور العمر .

ويوضح بياجيه أن الطفل في السن المبكرة لا يضع في اعتباره القصد عند حكمه الأخلاقي على الأشياء والذي يتم من منظور عياني واقعي دون تناوله القصد الكامن من وراء السلوك والاهتمام بمبرراته ، وتسمى تلك المرحلة الواقعية الخلقية وتظهر لديه غمط المسؤولية الموضوعية في الامتثال للأحكام الأخلاقية النابعة من التوجيه المفروض من البيئة الخارجية .

ويستطيع الطفل منذ السابعة والثامنة أن يدرج سلطة وقواعد الكبار ضمن تركيب عميق يعرف بالأخلاقيات خارجية المنشأ .

وتحدث خلال الفترة العمرية من الثامنة حتى الحادية عشرة مرحلة وسيطة للانتقال من غمط الأخلاقيات خارجية المنشأ إلى غمط الأخلاقيات داخلية المنشأ وتسمى بمرحلة الواقعية المعنوية حيث يظهر الإحساس بالتوازن في التعامل والأخلاقيات التبادلية مع الآخرين .

ويتم في مرحلة التنسيق خلال الفترة العمرية من ١١-١٣ عاماً وضع قواعد ثابتة تبني على الاحترام والتعاون المتبادل وتنمو لديه معايير نابعة عن اقتناع ذاتي دون فرض وصاية من الآخرين وإدراك مقاصد الأفعال في نمط المسؤولية الذاتية ضمن تركيب عميق يعرف بالأخلاقيات داخلية المنشأ في مرحلة أكثر نضجاً تعرف بمرحلة النسبية الأخلاقية .

- نمو التفكير الأخلاقي في ضوء نظرية كولبرج:

اهتم كولبرج ببحوث بياجيه وظل يعمل على تطويرها حتى توصل إلى أن هناك ثلاثة مستويات نمائية للنمو الأخلاقي وهي :

١- ما قبل الأخلاقيات .

٢- الأخلاقيات القائمة على المسابرة والأدوار المتفق عليها .

٣- الأخلاقيات القائمة على مبادئ معنوية تلقى تقبلاً من الذات .

وكل مستوى من هذه المستويات يحتوي على مرحلتين ، أي أن مراحل النمو الأخلاقي عند كولبرج عبارة عن ست مراحل .

واقترح كولبرج في نظريته للنمو الأخلاقي مراحل نمائية منتظمة للتعليل الأخلاقي Moral Reasoning أو ما يعرف بأحكام الفرد حول الصواب والخطأ ، ومهد الطريق للعديد من الدراسات التي تقيم هذه المراحل .

ويشير طلعت منصور وحليم بشاي إلى أنه قد اتضح من دراسات كولبرج ستة خصائص للتغيير المنظم للنمو الأخلاقي عند الأطفال :

١ - القصدية: وتعني أن الأفعال يجري الحكم عليها ليس وفقاً لما يترتب عليها من نتائج وإنما وفقاً للقصد أو النية .

٢- النسبية في الأحكام: فالطفل الأكبر يدرك السلوك في إطار السياق الذي يقع فيه بينما يدركه الطفل الأصغر وفقاً لأحكام مطلقة بالصواب أو الخطأ .

٣- استقلال الأحكام: فالطفل الأكبر يسلك على نحو ملائم بسبب قراراته الخاصة أما الأصغر خوفاً من العقاب .

٤- استخدام العقل كتعديل وكإصلاح: فالعقاب ينبغي أن يتم بالشكل الذي على الفرد أن يتعلم به ليكون على نحو أفضل .

٥- التبادلية: فوجهات نظر الآخرين وحاجاتهم تكون موضع اعتبار في الأحكام والأفعال الأخلاقية .

٦- النظرة الطبيعية لسوء الحظ: فما يقع للأشخاص ليس بالضرورة نتيجة لسوء سلوكهم ، وإنما يحدث لأي سبب من أسباب طبيعية عديدة .

- نمو الحكم الأخلاقي:

يذكر ديلديم وفيرومولين أن الأخلاق الغريبة عنا تنشأ عن احترام الطفل الوحيد الجانب للراشد أو الكبير .

وهذه أخلاق السلطة والإرغام ؛ ولهذا يستبقيها الطفل في تركيزه على ذاته ، وحتى عمر التاسعة أو العاشرة ، يعتبر الطفل أن القاعدة (قاعدة اللعب مثلاً) شيء مقدس لا يمس .

وعندما يصدر الطفل حكماً أخلاقياً على سلوك ما أو سرقة ما ، فإننا نجد أنه ينظر في حكمه إلى النتيجة المادية : فالطفل الذي يكسر عدداً أكبر من الأطباق أو الأكواب ، هو الأكبر جريمة ، مهما تكن الظروف التي تم فيها ذلك ، وهذا ما يسمى بالواقعية الأخلاقية - ذات المسؤولية الموضوعية .

والواقعية الأخلاقية تحمل الطفل على الاعتقاد بوجود عدالة محايدة، كأن كل عمل سيئ يتلقى عقوبة بالضرورة ومن غير تدخل أحد: والحق أن الطفل قبل السابعة يعتقد أن الطبيعة جملة منسجمة تخضع لقوانين أخلاقية كما تخضع لقوانين طبيعية.

أما العقاب العادل فهو العقاب الذي نُكفّر به عما ارتكبنا من الآثام، أو لنقل: إنه عقاب مكفر (عن السيئات) بل إنه ضروري ويزداد دوره وفعالته بقدر ما يكون قاسياً. وهذه القاعدة المفروضة من الخارج والتي لا علاقة لها بالعمل المعاقب عليه (كأن نحرم الطفل من قطعة الحلوى حباً بإصلاحه)، نقول: إن هذه القاعدة تتوازى تماماً مع ضغط الراشد وإرغامه.

وتؤدي ضرورة العقاب بالطفل إلى موقف يقوم على المسؤولية العامة، فعندما لا يعترف المذنب تلقائياً بما آتاه أو اقترفه فعندها يجب علينا أن نعاقب الناس جميعاً (كل أطفال الفصل أو كل المجموعة) وذلك لأن الرفاق الآخرين مذنبون؛ لأنهم لم يصرحوا باسم من أساء.

والعدالة هنا توصل بالسلطة (وهذا ينشأ عن الاحترام الوحيد الطرف) وعندما يقوم الخلاف بين المساواة وبين السلطة فإن الطفل يؤكد الضرورة الأخلاقية للمساواة.

ويؤدي فقدان النزوع إلى المساواة وضرورة إيقاع العقاب إلى أن يرجح العقاب على المساواة، فهناك عدالة مكافئة لا عدالة توزيعية (إذ يجب ألا تعطي الطفل الذي فقد قطعة حلواه واحدة أخرى بدلاً منها).

وتوضح المرحلة الفاصلة بين عمر الثالثة والسادسة هذه التأثيرات القائمة بين النمو العقلي والعاطفي والاجتماعي، إذ يعلل النزوع الاجتماعي إلى حد كبير

بالمركز حول الذات . والحكم الأخلاقي في هذا العمر متأثر بالواقعية والإحيائية والاصطناعية والقدرة التي لا حد لها التي يهبها الطفل أو ما يزال يهبها للراشد .

- السلوك الأخلاقي *Moral Behavior* :

مع دخول الأفراد المراحل العليا من النمو الأخلاقي فإنهم يظهرون مزيداً من المشاركة والمساعدة والحماية لضحايا الظلم والنظم غير العادلة، إلا أن العلاقة بين مستوى النمو الأخلاقي والسلوك الأخلاقي ليست قوية جداً كما يشير محمد البيلي وزملاؤه وبرك Berk .

هناك العديد من العوامل التي تؤثر في السلوك الأخلاقي بالإضافة للنمو الأخلاقي، ومن أهم هذه العوامل ما يعرف بالتذويت Internlization، والنمذجة Modeling .

يفترض المنظرون في النمو الأخلاقي أن سلوك الطفل الأخلاقي محكوم بتعليمات الآخرين المباشرة وإشرافهم وتعزيزهم وعقابهم ونصائحهم، ولكن مع مرور الوقت يتشرب الأطفال القوانين الأخلاقية ومبادئ السلطة التي توجههم، وتشير هذه العملية إلى أن المعايير الخارجية التي يتبناها أطفال من خلال التشئة الاجتماعية تصبح معاييرهم الداخلية، أي جزء من بنائهم الأخلاقي والنفسي والشخصي، وإذا ما أعطي الأطفال أسباباً ومبررات للتعليمات التي يتلقونها فإن هذه المعايير تصبح داخلية وجزءاً من بنائهم النفسي، بعدها سيتصرف الأطفال بشكل أخلاقي منسجمين مع هذه المعايير الذاتية دون مراقبة أحد .

كذلك إن من أهم العوامل التي تؤثر في السلوك الأخلاقي لدى الأطفال هو النمذجة، فالأطفال الذين يتم تنشئتهم ورعايتهم من قبل نماذج متسامحة من

الراشدين ، يطورون اتجاهات واهتمامات بحقوق ومشاعر الآخرين ، ومن المفيد التحدث هنا عن بعض السلوكيات غير الأخلاقية والتي يمكن أن تحدث من الأطفال :

* الغش Cheating :

أشارت العديد من الدراسات إلى أن سلوك الغش يرتبط بمواقف معينة أكثر من ارتباطه بدرجة الأمانة أو عدمها لدى الفرد ، فالطفل الذي يغش في اللعب غالباً سوف يغش في لعبة أخرى وكل همه الفرحة بالنجاح أو الانتصار على زميله . وكذا الطفل الذي يغش في امتحانات الرياضيات فإنه على الغالب سيغش في امتحان آخر . ويغش معظم الطلبة إذا ما واجهوا ضغوطاً لتحسين أدائهم وكانت فرص الإمساك بهم قليلة . وعندما سئل ١١٠٠ طالب في المرحلة الثانوية عن أسباب الغش وجدت ثلاثة أسباب عامة تكمن وراء هذا السلوك هي : الكسل في الدراسة ، والخوف من الفشل ، وضغوط الوالدين أو المعلمين للحصول على درجات عالية ، وقد كان الطلبة غير راضين عن سلوك الغش .

* العدوان Aggression :

يجب عدم الخلط بين السلوك العدواني والسلوك الجريء إذ يشير الأخير إلى محاولات الفرد لإثبات حقوقه المشروعة فالفرق واضح بينهما ؛ فالطفل الذي يقف ويقول : هذه لعبتي ، هو مثال للجرأة في حين أن الطفل الذي يضرب زميله ويقول هذه لعبتي ، هو مثال للعدوان . وتلعب النمذجة دوراً بارزاً في تعلم الأطفال السلوك العدواني ، فالأطفال الذين ينشؤون في بيوت يسود فيها العقاب والضرب والعنف العائلي يكونون أكثر ميلاً إلى استخدام العنف والعدوان لحل مشكلاتهم كما يشير محمد البيلي وزميلاه وكذا هولدن وزميله Holden & Ritchie .

كما يُعدّ التلفاز من أهم مصادر النماذج العدوانية في جميع المجتمعات الحديثة . إذ يصرف الأطفال الوقت الطويل في مشاهدة التلفاز مما يسيء إلى سلوكهم وتصرفاتهم ، ويمكن التخفيف من آثار التلفاز من خلال التركيز على ما يلي :

- تعريف الأطفال بألا يتصرفوا بالطريقة التي نشاهدها على التلفاز .

- تعريف الأطفال بأن المشاهد العدوانية التي يرونها على التلفاز هي مشاهد غير حقيقية .

- كما يجب أن يعرف الأطفال بأن هناك طرقاً أفضل لحل الصراع يستخدمها الناس .

ويذكر محمد الريماوي أن الطفل عندما يعاقب على سلوك أو عندما يسلك سلوكاً لا يتفق والقيم والاتجاهات التي توحدها فإنه يبدأ يشعر بالذنب والقلق والخوف ، ولكي يتلافى هذه المشاعر المؤلمة فإنه يفضل الالتزام بسلوك النموذج الأخلاقي .

إن تواجد هذه المشاعر هي مؤشرات دالة على اكتساب الطفل لمعايير السلوك الأخلاقي ، ويرى بعض علماء النفس أن هذه المشاعر قد تظهر مع البدايات المبكرة لهذه المرحلة ؛ مرحلة ما قبل المدرسة ، عندما يكتسب الطفل تحريماً معيناً ، مثل : لا تقترب من الكتب ، لا تفتح أدراج المكتب ، لا تعبث بحاجيات أخيك . . إلخ .

وشياً فشيئاً تتكون لدى الطفل صوراً ذهنية عما يجب أن يفعله وعما يجب ألا يفعله ، فتراه يعزف عن ضرب أخيه الصغير ويتوجه لمعاملته معاملة طيبة ، وبالمثل يتعلم كيف يكون أميناً ومطيعاً لا يكذب ولا يسرق ولا يغش .

إن تنامي عدد الصور الذهنية للسلوك المرغوب فيه والسلوك المرغوب عنه ، وتشرب الطفل لعدد أكبر من المفاهيم والقيم والاتجاهات ، وقوة توحده مع

النموذج الحامل لمعايير المؤدي للسلوك المتفق مع تلك المعايير نفسها، وعدم قدرة الطفل على احتمال مشاعر الذنب والقلق، كل ذلك يتوقع من تواجده التزام الطفل بالسلوك الأخلاقي في حضور الآخر أو في غيابه .

ويقول الريماوي : أما إذا تعرض الطفل لعقاب قاسي وتزمت شديد في مراعاة المعايير والقيم، وإذا كان توحده مع النموذج أساسه الخوف والرغبة لا الحب والدفء العاطفي، فإنه من المحتمل أن يكف الطفل عن السلوك غير الأخلاقي في حضور الآخر فقط ويمارسه في غيابه، الاحتمال الثاني تصاعد قوة مشاعر الذنب والقلق لدرجة يصبح معها يخاف حتى من أداء السلوك المقبول اجتماعياً وبالتالي أخلاقياً، مما يعيق النمو بدلاً من أن يطرده .

ونكرر أن الدراسات في مجال النمو الأخلاقي تركزت على أكثر من جانب، فقد اهتمت بداية بالتبرير الذي يقدمه الطفل للقرار الذي يتخذه الآخر ويترتب عليه سلوك أخلاقي، مثال ذلك : الغش يُعدُّ بشكل عام سلوكاً غير مقبول، عند وضع أحدهم في موقف كان عليه أن يختار أن يمتنع عن الغش ماذا يختار؟ ولماذا؟

واهتمت ثانياً بالكيفية التي يتصرف بها الأطفال في مواجهة القواعد الأخلاقية، مثال ذلك : هل الطفل يغش في شتى المواقف؟ وما هي العوامل التي تؤثر في سلوكه هذا؟

أما مجال الاهتمام الثالث فكان نوعية مشاعر الطفل بعد أن يتخذ قراراً أخلاقياً، وقد اهتم الباحثون بالقرارات التي تصدر وفقاً لها سلوكيات غير أخلاقية أكثر من اهتمامهم بتلك التي تصدر عنها سلوكيات أخلاقية في المثال السابق هل يشعر الطفل بالذنب إذا ما غش؟

والخلاصة أن مجالات الاهتمام في دراسة النمو الأخلاقي للطفل كانت مجالات: التفكير، الفعل، والمشاعر. وإذا كان كولبرج قد توصل إلى ست مراحل للنمو الأخلاقي تقع في ثلاثة مستويات فإن يياجيه أيضاً من العلماء الذين اهتموا بالتفكير الأخلاقي.

ومن خلال دراسته للنمو المعرفي للطفل خلص إلى وجود نمطين مختلفين من التفكير الأخلاقي: النوع الأول هو الواقعية الأخلاقية **Moral Realism** والذي يظهر لدى الأطفال من السنة الرابعة إلى السنة السابعة من العمر. والنوع الثاني هو الاستقلالية الأخلاقية **Moral Autonomy** هذا لا يظهر إلا بعد سن العاشرة، أما الأطفال في ما بين السابعة والعاشرة فيمرون في مرحلة انتقالية بين هذين النوعين من التفكير.

ما يهمنا هنا هو النوع الأول، فصاحبه يتخذ ما يترتب على سلوكه معياراً للصح والخطأ وليس القصد من السلوك مثال ذلك: إن كسر اثني عشر كأساً بالصدفة هو عمل أسوأ من كسر كأس واحد حدث في محاولة الطفل سرقة كعكة مخبأة في الثلاجة.

كذلك يرى الطفل أن المبادئ الأخلاقية ثابتة وتتمتع بسلطة مطلقة، ويعتقد أن العقاب سيقع فور مخالفة هذه المبادئ، وتشير نتائج العديد من الدراسات أن كل الأطفال من مختلف الثقافات والطبقات الاجتماعية ومستويات الذكاء لا بد أن يجتازوا مرحلة التفكير الواقعي الأخلاقي أولاً في مرحلة الطفولة المبكرة أو ما قبل المدرسة وعلى معلمة الروضة اتخاذ بعض الممارسات مع أطفال ما قبل المدرسة:

١- تقدم نفسها على أنها نموذج غير عدواني:

أ- لا تستخدم التهديد بالعنف لكسب الطاعة من جانب الطفل.

ب- عند ظهور مشكلة ما تحاول حلها بطريقة غير عدوانية أمام الطفل.

ج- لا تنفعلي مع تعرضك لمواقف محبطة أمام الطفل مثل : المعلمة التي انفجر في وجهها صنبور المياه .

٢- تأكدي بأنه تتوفر في غرفة النشاط مواد وخامات كافية لجميع الأطفال .

أ- تأكدي بأن الألعاب كافية .

ب- امنعي الازدحام .

ج- أبعدي المواد التي قد تثير العنف .

د- اجعلي المواد التي سوف تستخدم في تناول الأطفال جميعاً .

٣- لا تعززي السلوك العدواني :

أ- تعاطفي مع المعتدى عليه وأهملي المعتدي .

ب- استخدمي عقاباً معقولاً وخاصة مع الأطفال والكبار .

٤- علمي الأطفال السلوك الأخلاقي بشكل مباشر :

أ- ناقشي مستوى يتناسب مع الطفل القضايا الأخلاقية والاجتماعية في المجتمع .

ب- ناقشي مع التبسيط السلوك غير الاجتماعي غير الأخلاقي كالسرقة والعنف والتطرف والإشاعة .

٥- امنحي الأطفال فرصاً لتعلم الصبر والتعاون :

أ- ركزي على التشابهات بين الأطفال أكثر من الاختلافات .

ب- كلفي الأطفال بمشروعات تعاونية جماعية .

٦- على المعلمة بالروضة والأم بالمنزل :

أ- بالقيام بالإشراف المباشر مع الأطفال بعد الخامسة من العمر ، فاحتمال

الغش يأتي كلما أحس الأطفال بأنهم لن يضبطوا .

- ب- علمي الطفل المبادئ الأخلاقية .
- ج- إذا كان الطفل قبل الرابعة ، ويتقن اللعبة فعلينا أن نجعل أمامه طفلاً مكافئاً أو نترأخى له عند لعبه معنا .
- د- عبري عن عدم رضاك مع السلوك غير الأخلاقي للطفل .
- هـ- قدمي للطفل دعماً غير مشروط وبخاصة أن حبك له واستحسانك لا يجب أن يعتمد على إنجازاته .
- و- ابني في الطفل الثقة بالنفس وأنه سوف يتصرف بأخلاق حسنة في المرات القادمة .
- ٧- اعلمي أيتها المعلمة وأيتها الأم :

- أ- الضغط الخارجي على الأطفال للنجاح يكسبهم فكرة أن أفوز بأي أئمن .
- ب- يميل الأطفال قبل المدرسة إلى التمرکز حول الذات ، ويفكرون في ضوء أنفسهم وليس لوجهة نظر الآخر بدايةً ويطالبون بأن يكونوا الأوائل والأفضل والفائزين في كل الألعاب .
- ج- الأطفال الذين يشعرون بعدم الكفاءة أو سوء الاستعداد ويتوقعون الفشل أكثر وقوعاً في تصرفات لا أخلاقية مثل الغش والكذب .
- ٣-٢-٣ الخواص الفطرية للحاسة الأخلاقية:

يحدد سيد عثمان ثلاث خواص مميزة لطبيعة الاستعداد الفطري للحاسة الخلقية ، تميز القابليات الخلقية عن غيرها من الاستعدادات والقابليات وهي :
الخاصية الحيوية ، والخاصية الاجتماعية ، والخاصية التزكوية . وفيما يلي نحاول أن نوضح كل واحدة منها بشيء من الإيجاز .

أ- الخاصية الحيوية: وتستند هذه الخاصية إلى أنه لا يمكن أن تكون الفطرة الإنسانية مرتعا للقوى البيولوجية دون أن يوجد ما يعادلها من قوى أخلاقية مقابلة. فالقوى الأخلاقية مناظرة ومعادلة للقوى البيولوجية الحيوية في الإنسان. وأهم القوى الحيوية التي يستند إليها الاستعداد الفطري للحاسة الخلقية هي تلك الحاسة التي تميز بين الضار والنافع. فالاستعداد للحاسة الخلقية ملازم للقوى البيولوجية الأساسية عند الإنسان، بل وضروري لتنظيم عمل هذه القوى وتوجيهها والتسامي بها. خذ مثلاً موقف الإنسان من العدوان، وهي قوة حيوية قائمة في الإنسان تدفعه إلى التدمير المادي أو المعنوي، الفردي أو الجماعي، نجد أن الإنسان في عميق فطرته يشعر بضرورة كبح العدوان وتنظيمه وإحاطته بسياج أخلاقي. وهكذا نجد أن كل قوة بيولوجية دافعة عند الإنسان لابد وأن تواكبها، أو تتواكب فيها، قوة أخلاقية.

ب- الخاصية الاجتماعية: توجه الخاصية الاجتماعية لقابليات الحاسة الأخلاقية السلوك الأخلاقي للفرد نحو الآخر سواء كان فرداً أو جماعة. وتستند تلك الخاصية إلى قابلية التعاطف التي تجعل الفرد يدرك موقف واتجاه ومشاعر الآخر، فيحدد سلوكه وفقاً لما يتوقعه. كما تستند تلك الخاصية إلى قابلية الإيثار التي توجه سلوك الفرد إلى خير الآخر حتى ولو كان على حساب ضرر محتمل للفرد نفسه.

وهنا نجد أن الاستعداد للحاسة الجماعية يتمثل ميراث الجماعة المعنوي ويتوحد مع وجودها الأخلاقي والقيمي. وتعمل الحاسة الأخلاقية بالتعاطف العام عمل المراقب والمصحح للنشاط الأخلاقي في الجماعة ذاتها، كما تعمل عملها هذا نفسه للنشاط الأخلاقي للفرد ذاته. وبذلك تصبح المسؤولية الاجتماعية -وهي في جوهرها مسؤولية أخلاقية- الامتداد الجماعي للحاسة الخلقية.

ج- الخاصية التزكوية: التزكية هي الاستعداد الفطري للحاسة الخلقية عند الإنسان وهي بذرة نموه وسموه أخلاقياً. فحكمة الله سبحانه وتعالى التي غرسها في فطرة الإنسان هي قابليته لحاسة أخلاقية اجتماعية لها شعبتان: إحداهما متجهة إلى الذات، والأخرى متجهة إلى الجماعة.

وتتميز خاصية التزكية بأنها ذاتية، أي أنها متجهة إلى الذات، فتجعل الفرد قادراً على أن يجعل ذاته موضوعاً لتأمله وتقديره، وهذا يتضمن موافقه الأخلاقية اختياراً وسلوكاً وتبعية ومسؤولية. فلا يصدر سلوك الإنسان الأخلاقي مسaire لأخلاق الجماعة فحسب، بل لرفع ذاته، ودفعها عن مستواها الأخلاقي الذي تكون عليه حال تأمل الذات إلى مستوى أرقى فيه خير الجماعة وخير الذات.

وبذلك تصبح الخاصية التزكوية قوة دافعة كبرى في فطرة الإنسان للاتجاه نحو التكامل. وهي -أيضاً- نوع من ممارسة حرية الإرادة الذاتية في انصياع الفرد للقيم والمعايير الاجتماعية.

تلك هي الفطرة الإنسانية في وجودها الرفيع السامي. ولذلك فهي تحتاج إلى صيانة ورعاية في بداية تفتحها على الحياة لتحافظ على توازنها ونمو قابليتها نمواً متيناً قوياً متزناً. ومن الضروري أن نصون فطرة الطفل في شهورها الأولى من أي إمتهان أو إيذاء وتشويه، حتى لا يتعرض جوهرها الرهيف، ومكوناتها الدقيقة، وقابلياتها الغنية إلى التحلل أو التوقف أو التعطل.

فالمحافظة على فطرة الطفل بحرارتها ونضارتها الأولى توقد حوافز الارتقاء حيث تتلقاها البيئة فتتفاعل معها تفاعلاً إثرائياً، يزيد الفطرة حيوية وتفتحاً، ويزيد البيئة نفسها نشاطاً وقوة وفرحة بنتائجها.

٤- النمو الديني والخلقي للأطفال :

منذ ارتباط التربية بعلم النفس واهتمام العلماء موجه إلى دراسة سيكولوجية التعلم، وعندما اتضح للعلماء أن التعلم يتوقف على نضج قدرات الفرد واستعداداته اتجهوا إلى دراسة سيكولوجية النمو. ذلك أن النمو هو بداية العملية التربوية، والأساس الذي تقوم عليه التربية. ومن هنا يتطلب التخطيط التربوي للفرد وللمجتمع معرفة خصائص نمو الطفل في مختلف مراحل عمره حتى توضع البرامج الملائمة لنمو جميع جوانب شخصيته نموا متكاملا شاملا متزنا. وللوقوف على خصائص النمو الديني والأخلاقي للأطفال نناقش أولا معنى النمو، ثم نقف على بداية الشعور الديني للأطفال ومراحل تطوره، ثم خصائص النمو الأخلاقي للأطفال وتطوره.

٤-١ معنى النمو:

النمو عملية تغير تتميز بها الكائنات الحية. وهي عملية طبيعية مستمرة، وتسير في اتجاه التقدم بالكائن الحي. ويحدث التغير وفق نظام مسلسل يؤدي إلى النضج على مرور الزمن.

وتختلف الكائنات الحية بشكل عام في سرعة النمو، كما تختلف سرعة النمو أيضاً في كل مرحلة من مراحل حياته. إذ يبدو النمو واضحاً في مراحل الحياة الأولى عنه في مراحل الحياة المتقدمة. فالتغيرات التي تطرأ على الطفل في العام الأول من مرحلة المهد تفوق بكثرة تلك التي تحدث في أي مرحلة أخرى باستثناء فترة الحمل. وبينما تتميز مرحلة الطفولة المبكرة بسرعة النمو، تتميز الطفولة المتأخرة ببطء النمو. وعلى حين تظهر طفرة النمو واضحة في مرحلة المراهقة، يبدو النمو هادئاً في مرحلة الرجولة.

والنمو يخضع لعوامل كثيرة بعضها فطري وبعضها مكتسب، تتفاعل مع بعضها باستمرار. ويختلف هذا التفاعل من فرد لآخر. والنمو في النهاية محصلة لتفاعل هذه العوامل: الفطرة، والوراثة، والبيئة.

ويقصد بالعوامل الفطرية ما يزود به الفرد من قابليات، ويشترك فيه مع جميع أفراد جنسه، ويقصد بالوراثة انتقال بعض الصفات إلى الفرد من أبويه عن طريق المورثات (الجينات). أما البيئة فهي جميع المؤثرات التي يتلقاها الفرد وتؤثر فيه منذ بدء حياته الرحمية وحتى مماته. وهذا المعنى يجعل البيئة ديناميكية تمتد لتشمل دائرة الحياة كلها.

ويتضمن النمو جميع مظاهر التغير التي يمر بها الإنسان من تغيرات جسمية وعقلية وانفعالية واجتماعية، سواء كانت تلك التغيرات ظاهرة أو غير ظاهرة. وهناك مظهران للتغير: أحدهما كمي، والآخر كيفي. فالطفل يكبر وينمو. يكبر في الحجم، وينمو في الصفات والخصائص. والطفل الصغير ليس صغيراً فقط من الناحية الجسمية (الكمية)، بل هو بسيط أيضاً من الناحية النفسية (الكيفية). ومع نمو الجهاز العصبي للطفل ينمو تفكيره وتزداد انفعالاته تنوعاً وتعقيداً.

والنمو محصلة لعوامل النضج والتعلم. ويقصد بالنضج التغيرات الداخلية في الكائن الحي التي ترجع إلى تكوينه الفسيولوجي والعضوي وخاصة في جهازه العصبي. وهذه التغيرات سابقة على الخبرة والتعلم، ولا تؤدي العوامل الخارجية دوراً في تكوين هذه التغيرات، وإنما يقتصر تأثير البيئة على دعم هذه التغيرات وتوجيهها.

ويعد النضج من العوامل المؤثرة في التعلم، لأنه يحدد إمكانيات سلوك الكائن الحي، ويحدد بالتالي مدى ما يستطيع أن يقوم به من نشاط تعليمي، وما يحصله من مهارة وخبرة.

وتتميز حركات الطفل وسلوكه وتصرفاته بأنها تأخذ الشكل الكلي العام في مراحل حياته الأولى، ثم يحدث التخصيص بمرور الزمن، فتتظم التصرفات، وتتم بطريقة معينة لتؤدي غرضاً معيناً.

والنمو لا يحدث في جميع جوانب الشخصية بنفس المعدل، وإنما تنمو الخصائص الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية بمعدلات متفاوتة، ويكتمل نموها في أوقات مختلفة.

وعلى الرغم من اختلاف معدلات الخصائص المتنوعة، إلا أن هناك ارتباطاً موجباً بين سرعة نمو معظم الصفات. بمعنى أن الطفل سريع النمو يكون نموه سريعاً بالنسبة لغيره من الأطفال في مختلف النواحي، والطفل البطيء النمو يكون بطيء النمو في مختلف الصفات. وهكذا يصبح لكل طفل سرعته الخاصة في نموه، ويؤدي ذلك إلى ظاهرة الفروق الفردية بين الأطفال.

٤-٢ النمو الديني للأطفال:

سوف نستعرض أولاً خصائص الشعور الديني للأطفال ثم بداية الشعور الديني للأطفال، وأخيراً مراحل النمو الديني.

٤-٢-١ خصائص الشعور الديني للأطفال:

مما لا شك فيه أن الدين لا تقتصر آثاره ووظائفه على مرحلة واحدة من مراحل العمر، وإنما يشمل أثره كافة مراحل النمو الإنساني، غير أن هذا التأثير يختلف من مرحلة إلى أخرى.

وتظهر أهمية النمو الديني في مرحلتَي الطفولة والمراهقة حيث يمر الطفل بمرحلة تكوين الشخصية.

وعلى الرغم من أن القيم الدينية والسلوك الديني يؤثران -بشكل أو آخر- في كل جوانب حياة الفرد، إلا أن تأثيرهما أكبر في حياة الفرد الانفعالية التي تؤدي دوراً مهماً في تشكيل حياة الفرد وتحديد صحته النفسية . وهنا تجدر الإشارة إلى أهمية إجراء البحوث والدراسات التي تكشف عن الآثار التي يتركها التدين على صحة الطفل النفسية وثبات انفعالاته .

ويؤكد الشربيني أن هناك شبه إجماع من الباحثين على أثر البيئة الطبيعية والثقافية والاجتماعية - الاقتصادية في تأخير أو تعجيل ظهور مفاهيم الاحتفاظ، وعلى الرغم من أن بياحيه لا ينكر هذا الأثر إلا أنه يهتم بتعاقب ظهور المفاهيم الثلاثة كمؤشرات لمراحل النمو العقلي أكثر من اهتمامه بآثار البيئة، فهو يشير إلى أن الأعمار التي تظهر فيها المفاهيم في طهران هي نفسها تقريباً في جنيف، بينما يوجد في قرى إيران تأخر منتظم مدته ستان عما في العاصمة، وإن الأعمار في مونتريال هي الأعمار نفسها في جنيف، ولكن يوجد في المارتنيك (حيث يطبق هناك النظام التربوي والمنهاج الفرنسي) تأخر مدته أربع سنوات . هذا، وقد دعمت المئات من الدراسات التي أجريت في كثير من أقطار العالم المتقدمة والنامية والمتأخرة الفرضية القائلة : «بأثر البيئة في تكوين المفاهيم» .

- الأنا والمجتمع:

نحن نعني بكلمة (الأنا) النفس أو الذات المتصلة بشخص ما -وغير المتصلة بأحد- أي ذلك الفرد الذي يصير باطراد فصله وعزله كياناً مستقلاً إلى حد ما في أسرة الجنس البشري المترامية الأطراف .

وعملية الفصل أو العزل بطيئة كما أنها أيضاً عجيبة محيرة، وذلك لأن (الأنا) لا يتكون إلا حين يزداد تنبه الحضين شيئاً فشيئاً للأفراد الآخرين، وتبدأ

العملية بالألم ووجود أشخاص آخرين يساعدون الرضيع على إدراك وضعه هو والتعرف على مكانته، فالرضيع يحس بوجود نفسه في الآخرين، ولكنه يحس أيضاً بوجود نفسه في بنيته هو وكيانه الجسماني، وتتنازع كل من الخبرتين فتعوض إحداهما عن الأخرى وتكمل، إذ بينهما من الاختلاف ما يكفي لتكوين صورة دقيقة محدودة خاصة لنفسه هو، صورة مكتملة.

ففي سن مبكرة قد تصل إلى ٨ شهور يحس بالغرباء عنه كشيء يختلف عن المؤلفين له، وإن كان لا يتعرف على نفسه ولا يميزها في الصورة التي تحدد فيه من داخل المرأة. وفي سن الثانية تشتد حاسة التعرف على النفس وتمييزها فتراه يسمي نفسه باسمه هو ويسمي جميع الرجال والنساء «بابا» و«ماما» ويسمي كل طفل «بيبي»، وقد خطا خطوة قصيرة واحدة خارج حدود البيت المطبق عليه، فهو يطعم عروسه ويخبئ دبتة، ونستطيع أن نقول إنه قد بدأ يفصل بقوة بين نفسه وبين النفوس الأخرى حتي ولو كان يفضل دبتة، فهو يستمتع بالصور البسيطة للأشخاص وللأشياء كذلك. وفي الثالثة يحب أن يسمع عنهم حكايات - وهي خطوة أكيدة تبعده عن التمرکز حول نفسه.

ولا بد لنا هنا أن نعيد الإشارة إلى ما لطفل الثالثة من قدرة على المساومة جديرة بالملاحظة، فهي من علامات التغيير في نظرتة (الفلسفية) البعيدة إلى العالم. وفي الخامسة يحب أن يشعر بأنه قد كبر فتراه يسأل سؤالاً له دلالة ومغزاه: «هل يستطيع الصغير أن يفعل ذلك» ويقصد بطبيعة الحال أنه لا يستطيع.

وفي السادسة يكون الطفل من الناحية الانفعالية في حالة عجيبة محيرة، أو لعله بالأحرى في حالة حيرة بين أمرين أو طريقتين فيما يتصل «بالأنا» وبالعالم، فهو بكل تأكيد مركز عالمه حتى ولو كان من الناحية الانفعالية في شقاق مع أمه، كذلك تراه عظيم الاهتمام بنفسه إلى درجة غير عادية، قد استحوذت عليه

طفولية عميقة؛ فيكثر من التساؤل عن كيانه أو تكوينه التشريحي، وعلى الرغم من ذلك نراه متهافتاً على المشاركة في أعمال العالم، قلقاً مشغولاً من صميم قلبه بشأن عمله المدرسي، فهو إذن من وجهة النظر الأخيرة هذه ليس متركزاً حول نفسه كما صورناه.

ففي السابعة والعالم في اتساع حوله قد يكون سلطانه المحلي قد امتد إلى حد يجعله يطالب بمكان معين على المائدة أو في السيارة، بيد أنه يسعى أيضاً إلى تبين موقفه واتجاهه في المدرسة وفي المجتمع، وهو يبدي بواكير الاهتمام بالحكومة والحضارات، وفي خلال عام يتخذ هذا الاهتمام سبيله إلى التعبير في توسع، وطفل الثامنة على الرغم من أن السمات المزاجية لفرديته أصبحت الآن ملحوظة أكثر من ذي قبل، فإنه يتعرف على الشعوب الغريبة عليه والثقافات الأجنبية عنه ويألفها، إنه لا يكاد يطيق الانتظار حتى يكتمل نموه.

أما في العاشرة فقد بدأ يقرأ مجلات الكبار ويفكر جدياً في الحرفة التي سيتجه إليها عندما يكتمل نموه، ومن ثم أصبح يقرأ القليل من التراجم والتاريخ بتعمق وبنظرة شاملة مدركة للأهمية النسبية للحوادث، وهو يصغي إلى الراديو أو يشاهد التلفزيون ليستمتع ويرى الأخبار الواردة من العالم الخارجي، ويدهشك ما يصدر عنه من تعليقات.

- الموت والحياة:

يجذبنا موضوع الأخبار والحرب بطبيعة الحال إلى مبحث آخر كبير في ميدان الفلسفة وهو: أصل الحياة ومعنى الموت، إن وصول أسلافنا الأقدمين إلى التمييز بين الحياة والموت لم يكلفهم القليل من الاستبصار، وفي خلال نمو الطفل توجد فترة يوحد فيها بين الظاهرتين، حتى إنه ليعتقد، من وثيق الارتباط بينهما،

في إمكان النشور أو عودة الروح (أي صيرورة الموت عملية تقبل الانعكاس) وهذه الفكرة الشائقة تنبت في عقل طفل الخامسة، في الوقت نفسه الذي يطلع في فجر التمييز بين الحي والميت، فهو يدرك أن الميت لا حراك فيه.

وتبقى مدارك الطفل في أعوامه الأولى في هذا الشأن مبهمّة، فهو لا يتصور نفسه أو كبار السن أمواتاً. إن لديه فكرة طفيفة عن الخاتمة أو النهاية، ولكنه لا يحزن.

وعند العام الرابع للطفل تقريباً تتكون فكرة محددة عن الموت تكاد تكون لفظية صرفة، أما ابن الثالثة فقليل الفهم للموت، بيد أنه يقترب اقتراباً بسيطاً من مشكلة أصل الحياة ومصادرها، ويتم له ذلك عن طريق اهتمامه بالأطفال فهو يحبهم، ويريد أن تحصل الأسرة على طفل، وقد يسأل أسئلة المتحسس: «من أين يأتي الطفل؟» و«أين كان قبل ولادته؟» و«ماذا يستطيع الطفل أن يفعله عندما يأتي؟» هذه الأسئلة ليست من العمق كما تبدو في ظاهرها، ولكنها تدل فعلاً على اهتمام بالأصول، والأساطير التي تعبر عن النظرة الفلسفية للشعوب البدائية المليئة بنظريات عن أصل الخليقة وتكوينها.

وظل العام الرابع الذي يعيش وسط ثقافة تجارية الطابع قد يتشبث بفكرة أن الأطفال تُشترى، أو لعله حين يخلو بنفسه متأملاً يصبر في أكثر الأحيان على أن الطفل يولد من سرّة الأم.

وظل العام الخامس واقعي نوعاً ما من ناحية ولادة الأطفال، شأنه أيضاً من ناحية أن الموت خاتمة أو نهاية، وهو يربط بطريقة مبهمّة بين الحركة وبين الحياة، ولعله لا يميز تمييزاً مطرداً بين الحي وغير الحي من الأشياء عندما تبدو الأخيرة قادرة على الحركة.

ولكن تغيرات النمو إلى الأمام التي تصحب سن طفل السادسة يقترن بها تنبه جديد إلى كل من الحياة والموت . وتقدير الطفل لسلبية الموت يساعد على شحذ إدراكه لمظاهر الحياة ، ويسأل أسئلة كثيرة ، ويقوم بتحريات عامة عن عمليتي الحمل والولادة ، وقد تظهر عليه بوادر الاهتمام بالتوالد عند الحيوانات .

وفي السابعة من العمر يقل عنصر التعبير في اهتمامه ، ويكثر عنصر التأمل والتفكير ، فهو لا يحتاج إلى الحافز المحسوس لبدأ سلسلة قصيرة من التأملات النظرية ، وربما استحوذت على انتباهه بصفة خاصة النواحي الآلية أو الميكانيكية للولادة .

ومن الخصائص الثابتة لطفل العام الثامن أنه يكشف عن اتساع أكيد في مجال إدراكه وفهمه ، فهو يدرك الحاجة إلى فترة نمو طويلة في الرحم قبل الميلاد ، وقد بدأ يفهم أن الوالد يلعب دوراً في عملية الإنسال ، ومع ذلك فإن تفكيره قائم على المحسوسات نسبياً .

ومع حلول العام العاشر يكون أتم تصديقاً وتقبلاً لهذا الأمر فهو يجابه حقيقة الموت كظاهرة طبيعية ولا يقصر اهتمامه على حواشيها أو ذيولها ونتائجها ، وهو يتصور الحياة قائمة على أساس فسيولوجي من التغذية . . والنمو . . والتنفس ، فإذا تداعت مقوماتها هذه حل الموت ، فالموت عنده انتفاء للحياة وهو عملية حيوية أو بيولوجية .

ويقتررب طفل العاشرة من النظرة البعيدة للكبير ويتسلفها ، ويتمشى هذا مع سمات نضجه ويطابق اتجاهاتها .

الله والكون:

يكون طفل المهد حديث الولادة منغمساً في الكون مغموراً فيه ، ولعل هذا هو السبب في أنه محاط بهالة من الرحمة .

ويشير (ثورو Thoro) إلى مثل هذا في قوله : «ويصح أن نقول إن الرضيع ينفصل عن الطبيعة أو الفطرة وينأى عنها كما يرتحل الرجل الكبير عنها ويغادرها ، وعلى هذا يكون الطفل أثناء صغره وقصوره مطابقاً للفطرة كأنما هو جزء منها» .

وتحاول تدرجات النمو أن تنبئ عن الكيفية التي بها يخلص هذا الرضيع الممثل للجنس البشري بنفسه ويقوم بارتحال غائي صوب حالة من النضج يستطيع فيها تأمل الكون ، وهي رحلة طويلة تبدأ بخطواته الأولى في فتوحاته الباكرة التي توصل فيها إلى مفهوم الزمن والفضاء ، والتي لا تزال مستمرة في أسئلته النامية التي لا آخر لها : ما هذا؟ ولماذا؟ وكيف؟ والتي تؤدي به في خاتمة المطاف إلى المؤلفات الدينية التي تبحث في الطبيعة وفي الإله فتجيبه الثقافة فيها عن أسئلته طفلاً وكبيراً .

وتحد غرفة الحضانة من علم الطفل بالكون ، فعالمه يتكون من الأثاث وأدوات الطعام والمهد والثياب ، وربما لاحظ وهو في عربته الصغيرة تماوج الأشجار على الأفق ، ولمح ذهاب عربات النقل ومجيئها ، وأحس بكتل هائلة من البيوت على صفحة السماء ، ولكنه لا يكاد يحس بالأرض ولا بالسماء فهو لا يميز بين الاثنين ، والفضاء ينحصر عنده فيما ينصب على احتياجاته .

ومع تزايد قوة تنقله الحركي يأخذ عالمه الذي كان إلى اليوم ضيقاً محدوداً ، يأخذ في الاتساع والكبر ، ويبدأ يعرف أن الطرقات والشوارع تؤدي

إلى مكان ما، وقد يسمي شارع وقريته أو مدينته وكذلك المدن المجاورة، وسيجيء الوقت الذي تصبح فيه الصيدلية والسوق ومدرسة الحضانة والروضة قطعة من علمه بما يحيط به .

فلو أنه استطاع أن يرسم خريطة لعالمه لكان في مقدورنا أن نثق بما يشبه اليقين بما سيتضمنه هذا الرسم، وذلك لأن علمه بالكون يكون إلى سن الخامسة متصلاً بشخصيته إلى حد كبير .

وفي السادسة والسابعة تصير اهتماماته أبعد من شخصيته إلى حد ما عن ذي قبل، فإنه يبدي اهتماماً بالبلاد الأجنبية لا يقل ذلك عن تلمسه للكتب المصورة، كما أنه يتساءل عن السماوات والجنان، وفيه حب استطلاع لما في هذا الكون من الأرض، والنار، والرياح، والجو، والسحب . . .

والشجرة لم تعد مجرد بقعة متحركة وإنما هي نبات، ولكن كيف تسنى لها الوصول إلى مكانها المرتفع؟ من أين تأتي؟ وهل الشجرة تولد الرياح بتمايلها؟ ولماذا تعيش الأسماك في الماء، وهنا نكون أمام مفاهيم علمية في سبيلها للتكوين . . .

ويحق للمرء أن يعجب إزاء هذا البحر اللجي من الأسئلة، كيف يستطيع الطفل تفادي الارتباك والبلبل، ومع ذلك نراه يخلق ويصور لنفسه عالماً منظماً، فهو أولاً لا يسأل الأسئلة جميعها دفعة واحدة، وإنما يسأل بمناسبات تتصل بنقط معينة على مجهولاته، فإذا أنت حاولت إخباره بأكثر مما ينبغي أو أكبر مما ينبغي كنت أدنى إلى إرباكه وحيرته، إنه على الدوام يميز خطوة واحدة في كل مرة .

وحين يظهر التشكك في تفكير الطفل يحق لنا أن نوقن بأن عقله قد بدأ يشعر بنفسه، وهذا يفضي بالطفل إلى النظر للطبيعة نظرة يتزايد فيها عنصر

الموضوعية، وفي الوقت نفسه يصير إحساسه بنفسه أكثر تجريداً، كما أن مدركاته عن الخالق يلم بها تطور مشابه لذلك، وفي خلال الأعمار المبكرة السابقة لدخول المدرسة تكون علاقة الطفل بالكون وثيقة الصلة.

ويلاحظ ذلك قوله: «لماذا؟» و«كيف؟» ويلزمه قوله أيضاً: «لست أدري» و«لا أستطيع» فتساؤل الطفل واستفساره ينم عن غنى قدرته على النقد ويوجهها، ويمسي في شعوره بنفسه وإحساسه بذاته أكثر تميزاً، فهو لم يعد يعتبر نفسه قادراً على كل شيء، ثم يدرك بالتدريج، أو ربما فجأة، أن والديه أيضاً ليسا قادرين على كل شيء، وهذا من شأنه أن يدفع الطفل في حماس إلى مراجعة نفسه بشأنه نظرتة الفلسفية العامة، فإذا به يطل على العالم وعلى ما يتصل ببيته في ضوء جديد لا يفتأ يتغير.

وللثقافة الشائعة في البيت وديانته أثر بيّن واضح في فكر الطفل ومدركاته عن الله الخالق، ولكن الطابع العام لها تحدده في أساسه عوامل ثمانية أو مراحل للنمو.

تدرج النمو الفكري للطفل:

من المفيد معرفة تطور فكر الطفل حتى عمر سبع سنوات كما عرضها جيزل وترجمها عبدالعزيز جاويد وتوصل إلى بعضها الشربيني، وذلك في ساحات الزمن أو الوقت، ثبات الكم، الفضاء والكون، الحرب، الموت والحياة، الله والعبادة، نظراً لأن هذه الساحات لها أهميتها في مجال المفاهيم العلمية لطفل ما قبل المدرسة.

وقد وجدنا أن نعرض لتفصيل تطور فكر الطفل من خلال الساحة الخاصة بموضوع الله والعبادة نظراً لأهميتها الخاصة ولارتباطها الوثيق بموضوعنا:

الله والعبادة:

سنتان : - ليس لديه أي إحساس بالدين أو مشاعر دينية لها قيمتها .
- قد يطيب له تكرار العبارات الأخيرة في الصلوات ، أو الركوع
والسجود دون وعي ديني .

٣ سنوات : - قد يعيد تلاوة آية بأكملها كما تتلى .
- ازدياد الاهتمام بالمسجد .

٤ سنوات : - اهتمام ملحوظ بالإله ، وكثرة في الأسئلة التفصيلية الواقعية
بشأنه ، والفكرة عنه يبتها الوالدان عادة في ردودهم على أسئلة
مثل : «لماذا؟» و«كيف؟» ، ومن المحتمل أن تكون تعليقاتهم
وأسئلتهم غير لائقة إلى أقصى حد .
- يعتنق ديانة والديه : فالطفل يعتقد أن والديه عالمان بكل شيء ،
قادران على كل شيء .
- يستمتع بالصلوات ويحكم نقلها عن النموذج .

٥ سنوات : - يواصل الكثيرون اهتمامهم من أطفال العام الرابع بالإله
وبالأسئلة عنه ، بينما البعض بدؤوا يفقدون بالفعل ذلك
الاهتمام الملحوظ .

- يستطيب الصلاة وينشئ بنفسه حركات خاصة به .

- يحب صلاة الجمعة، ولكنه قد يكون قلقاً لا يستقر ولا يهدأ في المسجد.

٦ سنوات : - يفهم تماماً فكرة الإله كخالق للعالم، وللحيوانات، وللجميل من الأشياء.

- يعشق قصة النبي عليه الصلاة والسلام، ويهتم بها في انفعال.

- يهتم بالاستماع والكلام عن الملائكة.

- يستمتع بالعظة القصيرة من النوع المألوف له.

- الصلوات مهمة، ويتوقع الطفل استجابتها.

- شعور بثنائية قوتين: الجنة والنار، الإله والشيطان، الخير والشر.

٧ سنوات : - اهتمام بالإله، وبالجنة أكثر تعقلاً، بدأت أسئلته تصير أليق وأنسب.

- بداية تشكك طفيف وتمييز بين ما يعرف وبين ما قيل له فحسب.

- اهتمام بالمسجد واستمرار الاهتمام بقصص القرآن.

٤-٢-٢ بداية الشعور الديني لدى الأطفال:

في عالم الطفولة تنمو المشاعر الدينية تدريجياً مع نمو الطفل ، وعادة ما تبدأ المشاعر الدينية في صورة مفاهيم دينية ، وقبل الرابعة لا يزيد الشعور الديني عن بعض المفاهيم الدينية التي لا يدرك الطفل معناها . وعند التحاقه بالتعليم الابتدائي وتقدمه الدراسي يكتسب الطفل المعايير الدينية كالحلال والحرام خلال التنشئة الاجتماعية ، حيث يناقش الآباء والمعلمين في النواحي الدينية .

وحتى السادسة من العمر يستطيع الطفل أن يعرف بعض التعبيرات الدينية ، وفي نهاية مرحلة التعلم الأساسي تبدأ عند الطفل المظاهر الأولى للنقد الديني الذي يصل إلى ذروته في مرحلة المراهقة ، حيث يبحث عن إجابات مقنعة وتشبع حاجاته إلى الاستطلاع والمعرفة .

وتثير المسائل الدينية اهتمام الأطفال وخاصة ما يظهر من أسئلة دينية في عمر السادسة ، وحيث يحتاج إلى ردود تتناسب مع سنه ومستوى فهمه . وعند التحاقه بالمدرسة الابتدائية يعرف الإجابات التي تجعل من الأسئلة الدينية ما يؤكد للطفل تقديس العقيدة ، وعند تقدم العمر في الطفولة تتطور الأسئلة الدينية إلى أفكار تتصل بالنواحي الغيبية في العقيدة كالموت والبعث ، والثواب والعقاب والخلود . وقد يقتنع الطفل قبل دخوله المدرسة بالإجابات العابرة ، إلا أنه في مرحلة التعليم الأساسي وخاصة في الصفوف الدراسية المتقدمة غالباً ما يناقش هذه الإجابات .

وتعتبر القدوة الحسنة من الوالدين داخل الأسرة سبباً أساسياً في التمسك بالعقيدة وإقامة العبادات ، كما يلعب التلقين داخل المدرسة الابتدائية دوراً هاماً في تنمية الاتجاهات الدينية عند الطفل .

والواقع أن الطفل في مرحلة التعليم الأساسي تتضح أمامه العقيدة الإسلامية بأركانها والعبادات، ويتشرب هذه الأفكار ويمثلها ويمارس العبادات، حيث قرب نهاية مرحلة التمييز تتحول الصلاة والصوم إلى عبادات يمارسها (الطفل بحكم التقليد) وتصبح هذه العبادات جزءاً حيوياً في حياة الصغار يدافعون عنها ويغارون عليها وتحدد سلوكهم.

ويتأثر الشعور الديني بالنمو العقلي؛ ولذلك فإن الطفل في مرحلة التعليم الابتدائي عندما ينمو الإدراك والتفكير لديه ويصبح تفكيره أكثر موضوعية، يصبح الدين أكثر قبولاً من الناحية العقلية عند الطفل، حيث مع تقدم العمر وارتفاع المستوى العقلي يبتعد الطفل عن انفعالاته ويتقرب من الواقع الديني.

ومن الناحية الاجتماعية عندما تتسع الآفاق العقلية والاجتماعية في نهاية مرحلة التعليم الأساسي تزداد علاقة الطفل ببارئه، وتبدأ البذور الأولى للشعور الديني الصحيح. ومن الناحية الأخلاقية يزداد تماسك الطفل بالعقيدة وإقامة العبادات، وعندما يدرك الطفل قيمة الدعاء وارتباطه بالسلوك، وأن الدعاء وسيلة إلى تحقيق الرغبات كلما تقرب العبد من خالقه، ويزداد الإحساس السليم بالقيم وغمو الضمير.

وتعتبر التنشئة الاجتماعية وسيلة من وسائل تنمية الشعور الديني عند الأطفال، وغمو الضمير والرقابة الذاتية على السلوك، وحيث يعتبر النمو الأخلاقي السوي من الأسس الهامة في تنمية المشاعر الدينية بدرجة كبيرة.

والوالد الذي يمارس الضبط بأسلوب دافئ محبب يشجع الطفل على تنمية بؤرة داخلية للتنبيه، أما الضبط بأسلوب عنيف وعقابي ينمي أموراً أخلاقية غير مناسبة. والذكر الذي يخاف بسهولة وينسحب أمام العوائق يكثر تعرضه للنبد

من أقرانه أكثر من الأنثى التي تظهر السلوك نفسه ؛ لأن المفترض أن يخيف الأولاد غيرهم لا أن يخافوهم . فجماعات الأقران تدعم سلوك الطفل ليسلك وفقاً لجنسه .

ولقد اتضح أن الأولاد على وجه العموم أكثر وعياً من البنات في وقت مبكر بالسلوك المناسب لجنسهم . وتدرج بنات الطبقة الاقتصادية الدنيا أنماط السلوك المناسب لجنسهن في وقت مبكر مقارنة بالأولاد من الطبقة الدنيا .

وأولاد الطبقة الدنيا اقتصادياً يحققون مستوى عالياً من التوحد الجنسي في عمر ٥ سنوات بينما يكون المستوى نفسه من التوحد في عمر ٦ سنوات لدى أولاد الطبقة المتوسطة .

* الهدي الإسلامي والتوسط والاعتدال في تنشئة الأطفال:

يأمرنا دين الحق بالتوسط والاعتدال مصداقاً لقوله تعالى في أمة الإسلام:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

والأسلوب الأمثل في التربية الإسلامية للطفل هو في توسط واعتدال الآباء في تنشئة الأبناء ، وعدم المغالاة في التدليل أو التشدد والقسوة .

كما يجب أن يتوسط الآباء بين الشدة واللين ، والاستجابة فيما يتعلق بإشباع الحاجات الأساسية للطفل ، بحيث لا يعاني من الإحساس بالحرمان ، كما لا يتعود في ذات الوقت الإفراط في إشباع حاجاته والاستجابة لمطالبه . إن هذا الأسلوب من شأنه تعويد الطفل على تحمل المسؤولية وعلى قدر من مواجهة الواقع بما يحتويه من فشل أو إحباط ، وخاصة أن الحياة لا تحقق للإنسان كل ما يريد من متاع .

كما أن الإسلام ينادي بالعشرة بالمعروف بين الأزواج؛ لذلك فإنه يتعين إتاحة فرض الجو الأسري المشبع بالحب والأمن والانتماء، ويتم ذلك عن طريق التفاهم بين الوالدين وعدم إثارة الخلافات والمشاحنات أمام الصغار، وعدم التناقض في اتباع الأسلوب الأمثل في تربية الأبناء. وتقتضي التنشئة المثالية من الآباء والمربين تحديد قدرات واستعدادات الطفل، وعدم تدريبه أو تعليمه أو تكليفه بأداءات مُعينة قبل أن يصل إلى السن المناسب الذي يمكنه من القيام بالأعمال وتحمل المسؤوليات. والهدف من ذلك هو مراعاة مطالب النمو بما يتوافق ومظاهر النمو في النواحي الجسمية والنفسية والانفعالية والاجتماعية.

وينبغي ألا نغفل التباين الموجود بين الأطفال، والفروق الفردية في النمو بحيث يكلف الطفل بالأعمال والمسؤوليات التي تتفق وقدراته حتى لا يخفق في الوصول إلى الأهداف المرسومة أمامه، مما يتسبب عنه الفشل والإحباط وفقدان الثقة بنفسه والآخرين. وفيما يختص بالتربية المتكاملة عند دخول الطفل إلى المدرسة فإنه من الأهمية بمكان رعاية مظاهر النمو المتكاملة لبناء الشخصية الإسلامية التي تتكامل في تنمية الجوانب الجسمية والعقلية والنفسية والحلّقية والاجتماعية، وتنمية الاتجاهات والاستعدادات التي تمكن الأبناء من الانتماء والمواطنة من أجل أمة إسلامية آمنة.

إن العلاقات الوالدية المتبادلة بين الطفل والآباء وبين الطفل والمعلمين يجب ألا تبنى على التشدد من جانب واحد أو الحرية المطلقة التي تخلق اللامبالاة عند الصغار، وإنما يجب أن تؤسس على التوازن والتوسط وتمكن الأطفال من تشكيل بنائهم الشخصي الاجتماعي، الذي يكون ذا تأثير فعال في الحياة الاجتماعية التي يعيش فيها، فتنمي لديه الولاء والانتماء لأسرته ويشعر بالحب والاحترام تجاه أسرته ومدرسته ورفاق عمره، وإن الطاعة والالتزام والضبط واحترام الكيان

الأسري وتوقير الكبار وغير ذلك مما تحث على نمائه التربية الإسلامية بين أبنائها، يُعتبر من الضرورات التي يجب تنميتها لإكساب الأبناء على الواجبات والمسؤوليات التي يلتزم بها، والتي تعده لأن يكون قادراً على تحمل التبعات والمسؤوليات ومحاسبة النفس عندما يصل إلى سن التكليف والولاية على النفس واستكمال الأهلية.

إن الإسلام ينظر إلى المربي بأنه الذي يتعهد الولد بالرعاية والتأديب حتى يستوي بعد ذلك رجلاً. والله سبحانه وتعالى هو رب العباد، فقد أوجد وأبقى على الوجود كله، وحيث يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣].

والوالد والمعلم كلاهما أب، والأب سبب في الوجود ودوره في التربية معروف، والمعلم سبب في التهذيب والإصلاح، ولذلك كان جديراً بهذا الوصف، والحق تعالى يقول: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، ومن هذا يقرن الحق سبحانه وتعالى شكره بشكر الوالدين لما لهما من تربية وتنشئة الأبناء ومن جليل أعمالهم ما يستدعي عن الشكر الدائم لهما.

ودور الأب في تنشئة الأبناء هو الإنفاق على عياله، والإنفاق على الذرية في الإسلام يأتي على قائمة الإنفاق بل يعد أعظم صور الإنفاق. والإنفاق هنا يحقق:

١- إنقاذ الأبناء من الضياع حال إهمالهم، وخاصة أن مرحلة الطفولة يتم فيها اكتساب العادات وتتم فيها عملية التطبيع الاجتماعي.

٢- تنمية الجانب الأخلاقي في سلوك الأبناء عن طريق العفة التي تنأى بالأبناء عن مواطن الابتذال، والقناعة التي لا توجههم إلى الآخرين.

ودور الأم أساسي في حياة الصغار، فإن الطفل يُولد فتثبت عليه ثلاث ولايات:

١- ولاية التربية الأولى: وهي الفترة التي لا يستطيع أن يقوم فيها بحاجاته بنفسه وهي الحضانة.

٢- الولاية الثانية: ولاية الحفظ والصيانة والتعليم: وهي الولاية على النفس.

٣- الولاية الثالثة: تدبير شؤون ماله إذا ما كان له مال، وهذه تسمى الولاية على المال.

لذلك فالحضانة حق للأمهات أولاً. والأم ومن في حكمها من النساء أولى بالحضانة، بينما دور الأب واضح في التربية والتهذيب من بعد فراغ الأم من أداء هذا الدور.

وإن الأم العاملة التي تترك رعاية صغارها بين مربية أو حاضنة، قد لا تُعطي الرعاية الكاملة لصغارها، فالأم وعاء وسقاء ورعاء ودورها لا يستطيعه أحد غيرها في أشرب رسالة لها في الوجود وهي رسالة الأمومة.

٤-٢-٣ تطور المفاهيم الدينية عند الأطفال:

تختلف مفاهيم الأطفال عن الدين اختلافاً كبيراً عن أفكار الكبار وخبراتهم ومشاعرهم الدينية. والأطفال في طفولتهم المبكرة لا يدركون المعاني التي تنطوي عليها المعتقدات الدينية. وذلك لأن ذكاءهم لم يبلغ بعد المستوى الذي يؤهلهم إلى إدراك المفاهيم الدينية إدراكاً معرفياً.

فالأطفال في هذه السن لا يفهمون فهماً صحيحاً أغلب المصطلحات الدينية التي يتعلمونها، وإنما يرددونها دون وعي. فالطفل في طفولته المبكرة لا

يفهم من الدين إلا ما كان واقعاً ملموساً يخاطب إدراكه الحسي . ومع تطور نمو الطفل ، وانتقاله إلى مرحلة الطفولة المتأخرة ، يستطيع إدراك بعض المفاهيم المجردة مثل الخير ، والشر ، الفضيلة ، الرذيلة ، الصلاح ، والتقوى ، وغيرها من المفاهيم التي كان يعجز عن فهمها في طفولته المبكرة .

وفكرة الأطفال عن الغيبيات كذلك تتجه وجهة ملموسة في طفولتهم المبكرة . وينطبق ذلك على صورة الملائكة والشياطين . وترتبط هذه الأمور في ذهن الطفل بأساليب تربية والديه . فهو يفسر ما يسمع في ضوء ما يعرف ، كما يفسر ما يعرف في ضوء ما يشعر به .

ويستمد الطفل قسماً كبيراً من سلوكه الديني من القصص التي يسمعها من أبويه . ومن هنا تعد مرحلة الطفولة المبكرة والطفولة الوسطى مرحلتين الحكايات الدينية ، حيث يؤدي القصص الديني دوراً بالغاً في تنمية الاتجاه الديني للأطفال .

والطفل الصغير يتخذ الصلاة والدعاء وسيلة لتحقيق رغباته . وعندما يصل الطفل إلى مرحلة الطفولة المتأخرة ، ويدرك أن كثيراً من دعواته لا تجاب ، فإنه يظل على دعواته بحكم العادة ، ولكن ليس بنفس البراءة التي كان يدعو بها في طفولته المبكرة . وكذلك تتحول صلاته إلى عادة يمارسها بحكم التقليد . ومع نمو الطفل العقلي يدرك العلاقة بين الدعاء والعمل ، وتكون الجذور الأولى للشعور الديني الصحيح .

ومنذ أن يستيقظ عقل الطفل يثيره حب استطلاع عجيب لكشف سر وجود الكائنات من حوله ، وتثير المسائل الدينية اهتمامه . ولكن هذا الاهتمام يصطبغ بالشعور بالرهبة والقداسة . ولذلك تميل أغلب أسئلة الطفل في مرحلتين الطفولة المبكرة والوسطى إلى النواحي الغريبة في العقائد الدينية السائدة عن الموت ،

والبعث، والولادة. وهو يقتنع بما يقال له من اجابات عابرة، ولكنه يبدأ يناقش هذه الإجابات في طفولته المتأخرة.

وتعتبر حوادث الموت التي تقع دون أن تكون للدوافع الإنسانية دخل فيها من الحوادث التي تسترعي انتباه الأطفال، ولذلك لابد من تحليلها لهم، بأنها إرادة عليا فوق إرادة البشر. ولا شك أن إدراك هذه القدرة يعد أول نقطة في تفتح الاستعداد الديني عند الأطفال، ومنذ معرفة الطفل القدرة الإلهية التي تفوق قدرة البشر يتدرج الطفل في السؤال عن سائر الظواهر الكونية التي لا يستطيع البشر دفع حدوثها. ولا شك أن التعليلات المنطقية تتجاوز قدرات الطفل العقلية في هذه السن المبكرة. ولا شك أيضاً أن دهشة الطفل أمام مشاهداته اليومية لعجائب الطبيعة هي الأساس لاعترافه بقدرة الله وعظمة الخالق في خلقه.

وفكرة الأطفال عن الله جل جلاله تختلف من طفل لآخر تبعاً لنوعية البيئة التي ينشأ فيها الطفل، وتبعاً لأساليب التربية التي تستخدم معه لإيقاظ شعوره الديني. والواقع أن إيمان الطفل بربه يقوى بالمشاهدة والسماع وتقليد الوالدين في الصلاة والدعاء. ومع تقدم الأطفال في العمر تتطور فكرة الله في أذهانهم.

وفي سن العاشرة ينمو اعتزاز الطفل المسلم بالإسلام. على أساس وحدة المعتقد، والثقة والإيمان بالله وحده. وهكذا يتدرج الطفل في تنزيه الذات الإلهية تنزيها ناشئاً عن رقي تفكيره، وسعة مداركه المعنوية.

ومع تقدم الطفل في العمر ينمو لديه الشعور بالتسامح الديني، وبالحرية الدينية، ويحدث التحرر الديني فيما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة من العمر.

وتكشف الدراسات المبكرة التي أجريت مع بداية القرن العشرين الميلادي أن التحول الديني يحدث فيما بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر. غير أن

الدراسات المتأخرة نسبياً كدراسة كلارك Clark التي أجريت عام ١٩٢٨م أوضحت أن متوسط حدوث اليقظة الدينية هو الثانية عشرة من العمر، وهي سن مبكرة قليلاً عن البلوغ. ومما لا شك فيه أن أي تكثيف في الميول الدينية يعود إلى النضج العقلي أكثر منه إلى النضج الجنسي (البلوغ). فقد كشفت دراسة هولنجورث Hollingworth سنة ١٩٣٣م أن تكثيف الميول الدينية يحدث في الأطفال الموهوبين في الثامنة من العمر.

وفي مرحلة المراهقة يحل الحماس الديني محل الاتجاه الديني التقليدي. ويتلون الحماس الديني بالسمات الغالبة على شخصية المراهق. فهناك التحمس المصحوب بالتححرر من البدع، وهناك الاندفاع إلى النشاط الاجتماعي والديني، كما يظهر في الانضمام إلى جماعات البر والإحسان. وقد يقتصر الحماس الديني على المستوى الشخصي ويتجه إلى التصوف، وقد يلجأ البعض إلى الدين كوسيلة لإعلاء الدافع الجنسي، وقد يأخذ الحماس الديني شكل عمل جماعي لإقامة دعائم الفضيلة في المجتمع.

وهكذا يسود الشعور الديني لدى المراهق روح التأمل، ويبدأ المراهق في تجريد الله من التشبيه والتجسيم، وينشغل المراهق بصفات الله وأفعاله أكثر من الانشغال بشكله وصورته، ويزداد المراهق تقرباً إلى الله كلما اشتد الشعور بالذنب، فيتضرع إليه ليعينه على دوافعه، ويخلصه من عذاب نفسه حتى يتجنب العقاب الداخلي المعنوي.

٤-٣ النمو الأخلاقي للأطفال:

ينبغي أن يكون واضحاً في الأذهان أن المفهوم السلوكي للأخلاق Moral Behavior كعادات فردية واجتماعية يختلف عن المفهوم الفلسفي للأخلاق وعن

علم الأخلاق Ethics . ومن دراستنا السابقة لمفهوم الأخلاق يمكننا تحديد مجالين عريضين للأخلاق : أحدهما يدفع الفرد إلى الامتثال لمعايير المجتمع وقيمه ، والآخر يدفع الفرد إلى إشباع الغايات المثلى بغض النظر عن عادات المجتمع ومعاييرها .

والأخلاق في المجال الأول تدفع الفرد إلى اكتساب الأنماط السلوكية التي يرضى عنها المجتمع ، ومراعاة تقاليده وقيمه الاجتماعية ، كما أنها دينامية تنمو وتتعدل وتتطور وتتأثر بالتنشئة الاجتماعية ، وهي أيضاً تختلف من مجتمع لآخر ، وتختلف في المجتمع نفسه من عصر إلى آخر ، وتختلف في المجتمع الواحد وفي العصر نفسه باختلاف الطبقات الاجتماعية . أما الأخلاق في المجال الثاني فهي استعداد كامن داخل الفرد نفسه يدفعه إلى القيام بالسلوك الأخلاقي وتعتبر عنه القابليات الأخلاقية .

وبذلك تتضمن الأخلاق قوة إرادية كافية لتوجيه السلوك نحو نوع ما من القيم . وبتقدم الطفل في العمر تتحول هذه القوة الرادعة من كونها قوى خارجية صادرة من خارج الطفل (الآباء والمربين - والتقاليد والقيم الاجتماعية) إلى أن تصبح قوى داخلية ذاتية (الضمير) تمثل معايير الطفل ذاته .

والنمو الخلقي - كغيره من مظاهر النمو الأخرى - يحدث تدريجياً ، ولا يتضمن طفرة أو انتقالاً فجائياً من مرحلة إلى أخرى ، ولا توجد فواصل حاسمة قاطعة في مظاهر النمو الخلقي بين المراحل المختلفة . ويسير النمو الخلقي لدى الأطفال من مجرد الرغبة في تحقيق اللذة والسعادة إلى التقيد بالمبادئ الخلقية والقيم الاجتماعية في المجتمع الذي يعيش فيه .

ولا يمكن تخيل حدوث النمو الخلقي بمحض الصدفة ، بل إنه يحتاج إلى جهود وأساليب مدروسة ، ويتطلب تخطيطاً دقيقاً للمواقف التي تضمن التعاون

والضبط الذاتي ونمو روح الجماعة، كذلك يتطلب تشجيع الطفل على تعلم المبادئ الخلقية من خلال تحمل المسؤوليات وتقدير الصالح العام وحمايته. ويخضع لكثير من العوامل التي تعوق حدوثه أو تسهله. ومن هنا سوف نتطرق إلى الحديث عن العوامل المؤثرة في النمو الخلقي، ومستويات النمو الخلقي، ومراحل النمو الخلقي، ومظاهره في مراحل النمو المختلفة وأخيراً المبادئ الخلقية في الإسلام التي ينبغي أن نربي النشء على أساسها وفي رحابها.

٤-٣-١ العوامل المؤثرة في النمو الخلقي:

تختلف اتجاهات العلماء نحو تحديد العوامل المؤثرة في النمو الخلقي للأطفال. فيتجه بعض العلماء إلى إرجاع السلوك الخلقي إلى الوراثة، ومنهم من يعتقد بأهمية البيئة في اكتساب السلوك الخلقي. ومنهم من يبرز دور الجهاز النفسي في النمو الخلقي.

أ- عامل الوراثة والنمو الخلقي: يؤكد أنصار الوراثة أهمية العوامل الفطرية في الأخلاق، ويفترضون وجود حس خلقي داخل الإنسان. وأوضحت دراسة كانر Kanner أن الضعف الخلقي الموروث ينتشر في أسر معينة عبر الأجيال المتعاقبة. ويعتقد لمبروزو Lombroso بوراثية الإجرام. ويزعم البعض أن الطفل يرث السمات الخلقية المحددة كالأمانة والصدق عن والديه، ويعتقد البعض أن الطفل يولد وهو مزود بضمير معين يساعده على التمييز بين الخطأ والصواب.

وفكرة إرجاع الأخلاق إلى الوراثة تخلص الآباء والمربين من مسؤولياتهم إزاء تربية الطفل تربية خلقية سليمة. حيث إنهم لا يعزون السلوك المرغوب فيه إلى فشلهم في التربية، وإنما إلى نقص وراثي أو فطري في الطفل لا يمكنهم التغلب عليه.

ب- عامل البيئة والنمو الخلقي: يؤكد أنصار هذا الاتجاه أن ضمير الطفل يتكون خلال الشعور بالالتزام، أو القيام بالواجبات الاجتماعية. فأسلوب التربية القائم على الحب هو الذي يؤدي إلى تنمية الضمير، أما الحماية الزائدة أو الخضوع لرغبات الطفل المبالغ فيها فإنهما يؤديان إلى زيادة نزوات الطفل. ويؤدي المنزل والمدرسة دوراً مهماً في نمو السلوك الخلقي، وقد لوحظ أن السلوك الخلقي للأطفال يتدهور عند ضعف الإدارة المدرسية.

ومن العوامل المؤثرة في السلوك الخلقي ارتياد أماكن العبادة، فالخبرة الدينية لها تأثير كبير على النمط القيمي للأطفال والشباب. كما تؤثر الطبقة الاجتماعية في النمو الخلقي للأطفال، لقد وجد في المجتمع الأمريكي أن أطفال الطبقات الاجتماعية الدنيا أكثر تسامحاً من أطفال الطبقات الاجتماعية العليا إزاء الأفعال الخاطئة.

ج- الجهاز النفسي والنمو الخلقي: يعتمد النمو الخلقي للطفل على جهازه النفسي وخاصة فيما يتعلق بالذات، والذات العليا، ومثاليات الذات. والذات تمثل الجانب الواقعي في شخصية الفرد. وتكمن أهمية الذات في التربية الأخلاقية في أنها تعدل سلوك الطفل في إطار الواقع والظروف المحيطة به. ورغم أن الذات تتكون في الطفولة إلا أنه يعاد تكوينها في المراهقة. وتختلف الذات عن الذات العليا في أنها تبين للفرد عقلياً نتائج أفعاله، بينما الذات العليا تنهأ أو تهين له مقاومة الإغراء، وتشعره بالذنب عندما يخطئ.

والذات مفهوم مركب يؤدي كثيراً من الوظائف منها: الإدراك الحسي، والإدراك المعرفي، والحركات الإرادية، والحركات غير الإرادية، وضبط النفس، ولجميع هذه الأنشطة أهميتها المباشرة في التربية الخلقية. ويلاحظ بوضوح أنه عندما تتعطل إحدى هذه الوظائف ينحرف السلوك إلى الجانب غير الأخلاقي.

والذات العليا تعبر عن الضمير، وتقوم بوظيفتين: أولهما مقاومة الإغراء، وثانيهما الشعور بالذنب. والذات العليا تمثل معايير الفرد وقيمه ومبادئه ومثله العليا. وهي السلطة الضابطة العليا في الإنسان، فإذا لم يستجب الفرد لندائها فإنه سوف يعاقب عن طريق قوة داخلية من خلال الشعور بالذنب، وكرهية الذات.

وإذا زادت سيطرة الضمير في الشخصية، يصبح الفرد عبداً لمجموعة من العادات والتقاليد، وعبداً لمشاعر الذنب والتأنيب القاسية. وهناك ثلاثة عوامل أساسية مسؤولة عن غو الضمير وهي: معايير الثقافة الاجتماعية، والنمو العقلي للطفل، وعلاقة الطفل بأبويه.

أما مثاليات الذات فهي مفهوم يدل على فكرة الفرد عن نفسه في صورتها المثالية. وقد تقترب مثاليات الذات من الواقع، فيصبح الفرد إنساناً عادياً، وقد تغرق مثاليات الذات في التسامي، فتصبح بعيدة المنال وغير واقعية أو محتملة الحدوث؛ وبذلك يصبح الفرد شاذاً ويسلك سلوكاً غير عادي. وغالبا ما تجسد مثاليات الذات للفرد نماذج من حياة الآخرين ليقتدي بها في حياته اليومية.

والعلاقة بين هذه العوامل الثلاثة: الوراثة والبيئة والجهاز النفسي علاقة تفاعل، ولها تأثير متبادل قوي في النمو الخلقي، وإن كنا نميل بصفتنا مربين إلى أن نعطي مزيداً من الأهمية للعوامل البيئية؛ لأن ذلك سوف يوسع مقدرتنا على مساعدة الأطفال على النمو الخلقي السوي، وإرجاع السلوك الإنساني إلى العوامل الوراثية وحدها، يضيق من إمكانية تعديل السلوك المنحرف. ويصبح دور المربي هو تناول قابليات الطفل الخلقية بالتوجيه والتنمية عن طريق توفير الخبرات والفرص التي يتطور من خلالها النمو الأخلاقي للطفل.

هذا ويقترح بريكنريدج Breckenridge العوامل الآتية أساساً للنمو الأخلاقي الجيد:

أ- الصحة الجسمية الجيدة . لمقاومة الإغراء وللتحرر من الشعور بالمرارة أو النقص .

ب- الأمان الانفعالي لإمكان الشعور بالحب تجاه الآخرين .

ج- توافر منافذ للتعبير .

د- التدريب المستمر في التحكم وال ضبط الذاتي للمساعدة في التخلص من البواعث الطفلية .

هـ - وجود أفق اجتماعي مستمر الاتساع لتنمية القدرة على اكتساب المعارف ، وعلى التسامح والفهم والتعاطف ، وتنمية الرغبة الأصلية لتقدير حقوق وواجبات الآخرين .

و- الطموح نحو الرغبة القوية في عمل الصواب ، بحيث يجد الفرد الشعور بالرضا والسعادة نتيجة لعمل الصواب .

٤-٣-٢ مستويات النمو الخلقي:

يمر السلوك الخلقي بمستويات ومراحل يتلو بعضها بعضاً ، ولن يصل الطفل إلى مستوى من تلك المستويات حتى يكون قد مارس فعلاً المستوى الذي قبله .

وتتوقف عملية الانتقال من مستوى أقل نضجاً إلى مستوى أكثر نضجاً من مستويات النمو الخلقي على مجموعة من العوامل نذكر منها .

١ - نمو المفهوم العام لما هو صواب ، ولما هو خطأ ، بحيث يحل ذلك المفهوم محل القواعد النوعية المحددة .

٢- نمو المعايير الداخلية تدريجياً بحيث تحل تلك المعايير محل الطاعة للأوامر والنواهي الخارجية .

٣- زيادة فهم القواعد السلوكية الأخلاقية بصورة تجعل السلوك الخلقي صادراً عن الاحترام والموافقة ، أكثر من كونه نتيجة لطاعة الأوامر التعسفية .

٤- نمو قدرة متزايدة واستعداد أكبر ، تؤدي إلى تقدير الظروف المحيطة بالسلوك الخاطئ بدلاً من الحكم الآلي على العمل الخلقي .

وقد تمكن كوهلبرج Kohlberg من تحديد ثلاثة مستويات للنمو الخلقي يشتمل كل منها على مرحلتين . وقد توصل الباحث إلى هذه المستويات بعد تحليل لنتائج تجربته التي أجراها على ٧٢ طفلاً تمتد أعمارهم من ١٠ إلى ١٣ عاماً وقلة منهم تبلغ ١٦ عاماً . واعتمد كوهلبرج في دراسته لاستجابات الأفراد على المقابلة الفردية التي رصدها على شريط تسجيل ثم قام بتحليلها تحليلاً دقيقاً . واحتوت أسئلة المقابلة على عدد من القضايا الخلقية (٥٠-١٠٠ قضية) ، واستخدم الباحث مجموعة من القصص التي تشتمل على نوع من التعارض بين قيمتين من القيم الخلقية . وتناول الباحث في دراسته عدداً من المفاهيم الخلقية (العدالة - الخير) ودرس وجهة نظر الأطفال في النوايا التي دعت إلى السلوك ، ومدى اختلاف هذه النوايا عن النتائج التي تحدث بعد ذلك . وانتهى الباحث إلى تحديد المستويات الثلاث الآتية :

أ- مستوى ما قبل السلوك الأخلاقي ، ويتضمن مرحلتين هما :

(١) مرحلة العقاب والطاعة نتيجة للعقاب ، وفيها يخضع الطفل للأوامر لتجنب العقاب .

(٢) مرحلة الأداء البدائي لتحقيق اللذة ، وفيها يخضع الطفل للأوامر حتى يثاب على عمله .

ب- مستوى السلوك الخلقي لإرضاء الآخرين ، ويتضمن مرحلتين هما :

(١) مرحلة السلوك الخلقي الطيب الذي يؤدي إلى علاقات اجتماعية قوية ، وبذلك يساير الطفل الأوضاع القائمة حتى لا يصبح منبوذاً من الجماعة .

(٢) مرحلة السلوك الخلقي الذي يساير السلطة القائمة ، وفيها يسلك الطفل مسلكه الخلقي ليتجنب رقابة السلطة القائمة وحتى لا يقع في الخطأ .

ج- مستوى السلوك الأخلاقي القائم على التقبل الذاتي للقيم الخلقية ، ويتضمن مرحلتين هما :

(١) مرحلة السلوك الخلقي القائم على العلاقات الاجتماعية التي تحدد للفرد ما يجب عليه ، وهذا يؤدي إلى أن يسلك الطفل مسلكاً يتجنب به الاعتداء على حقوق الآخرين .

(٢) مرحلة السلوك الخلقي الذي ينبع من القيم العليا التي يحددها ضمير الفرد . وبذلك يتجنب الفرد سلوكاً معيناً حتى لا يصبح ساخطاً على نفسه .

ومن هنا يستطيع المعلم والمربي أن يوجه الطفل في نموه الخلقي ، ويسير به من مستوى من مستويات النمو الخلقي إلى المستوى الذي يليه ، ويستطيع المربي أيضاً أن يكتشف الوسائل التي تسرع بالطفل للوصول إلى المستوى الخلقي النهائي ، وما يعوقه عن الوصول إلى هذا المستوى ليعالج الموقف علاجاً صحيحاً في إطار العوامل التي تؤدي إلى سرعة النمو الخلقي .

٤-٣-٣ مراحل النمو الخلقي:

يتم النمو الخلقي مروراً بمرحلتين متميزتين: الأولى نمو السلوك الأخلاقي، والثانية نمو المفاهيم الأخلاقية. وفيما يلي نناقش كل مرحلة على حدة.

أ- نمو السلوك الأخلاقي: انتقدت نظرية سقراط الأخلاقية القائلة بأن الفضيلة علم، والرذيلة جهل، لأن المعرفة الأخلاقية وحدها لا تكفل السلوك الخلقي. فالسلوك الخلقي له جوانب متعددة أخرى غير مجرد العلم بالخير والشر، ومعرفة الخطأ والصواب.

سلوك الأطفال والكبار في موقف معين يكون لهم فيه الخيار يتحدد من خلال مجموعة من العوامل نذكر منها:

- (١) الضغوط الاجتماعية.
- (٢) مشاعر الفرد نفسه.
- (٣) الطريقة التي يعامله بها الآخرون في أسرته ومجتمعه.
- (٤) رغبات وآمال الفرد في تلك اللحظة.

والطفل يتعلم السلوك الخلقي من خلال ثلاث طرق هي:

- (١) المحاولة والخطأ.
- (٢) التلقين والتعلم المباشر.
- (٣) التقمص والتمثل والتوحد.

ولما كان تعلم السلوك الأخلاقي عن طريق المحاولة والخطأ مضيعة للوقت والجهد، وغير مضمون العاقبة، فقد أصبح التعلم المباشر، والتقمص هما أكثر الطرق استخداماً في تعلم السلوك الخلقي.

والتعلم المباشر للسلوك الأخلاقي يستهدف تعريف الصغير بما هو خير وصواب، ودفعه للتصرف على النحو الذي يتوقعه منه المجتمع. وإذا ما صاحب هذا التلقين لون إيجابي من التعويد أو التأديب يستخدم بثبات، يصبح السلوك الأخلاقي اعتيادياً.

وتثبت الدراسات أن تعلم السلوك يتبع عموماً قوانين التعلم، فالطفل الصغير يتعلم القيام باستجابات صحيحة لمواقف معينة إذا ما كانت المعايير التي يتم تعلمها في البيت والمدرسة وجماعات الرفاق ثابتة ومتوافقة. أما إذا تناقضت هذه المعايير من موقف لآخر. فإن الطفل سوف يختلط عليه الأمر. ومن حق الطفل أن يعرف ما هو مطلوب منه في المواقف المتشابهة، إذ أنه لن يتعلم السلوك الأخلاقي المنشود إلا إذا استخلص بنفسه المشابهات الموضوعية التي إذا توافرت في موقف ما فهو يواجهه كالسابق، وإذا اختلفت فإنه لا يتصرف.

وفي تعلم السلوك الأخلاقي بالتقمص، يأخذ الطفل قيم شخص آخر، ويشكل الطفل سلوكه وفقاً لسلوك ذلك الشخص بطريقة لا شعورية. فالطفل هنا يتعلم السلوك الأخلاقي من غير أي ضغط أو تعليم مباشر، وإنما يحاكي أنماط السلوك التي يلاحظها من ذلك الشخص. وتعلم السلوك الأخلاقي عن طريق التقمص أو التوحد في الذاتية أو الهوية لشخص آخر يصبح أكثر أهمية كلما تقدم الأطفال في العمر. وهنا تصبح للقدوة الحسنة دور بالغ الأهمية في تحقيق نمو السلوك الخلقي.

ب- نمو المفاهيم الخلقية: المرحلة الثانية من النمو الخلقي تتعلق بتعلم المفاهيم أو المدركات الخلقية Moral Concepts. أي تعلم مبادئ الخطأ والصواب في صورتها المجردة واللفظية والنظرية. وهذا التعلم يتواءم مع نمو القدرة العقلية للأطفال.

وقد كشفت دراسات نمو المفاهيم العقلية عموماً أن المفاهيم الخلقية تكون أول الأمر نوعية Specific تتصل بمواقف معينة سبق تعلمها، وكلما أصبح الطفل أكثر قدرة على تعرف العنصر المشترك من كثرة المواقف الأخلاقية، تدرج تعلمه للمفاهيم الخلقية العامة.

وبصفة عامة يستغرق تعليم الصغار المبادئ الخلقية التي تتطلبها الجماعة وقتاً وجهداً كبيرين، ويزيد من صعوبة تعلم الطفل المبادئ الخلقية عوامل كثيرة أجملتها اليزابث هيرلوك E. Hurlock فيما يلي:

- (١) مستوى النمو العقلي للطفل.
 - (٢) نوع التعلم الذي يتم من خلاله تعلم السلوك الأخلاقي والمفاهيم الخلقية.
 - (٣) اختلاف القواعد الخلقية بصدد الصواب والخطأ.
 - (٤) تباين السلوك في المواقف الأخلاقية المختلفة.
 - (٥) الصراع مع الضغوط الاجتماعية.
- ٤-٣-٤ مظاهر النمو الخلقى في مراحل النمو المختلفة:

الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة لم يصل في نموه إلى درجة من النضج العقلي تسمح له بتعلم المبادئ الأخلاقية المجردة. ولذلك فإنه يحدد «حسن السير والسلوك» في لغة الكبار بحدود أفعال معينة مثل: «سماع كلام الوالدين». كما أنه يعجز عن تحديد مفهوم الصواب والخطأ، ولكنه يدرك «سوء السلوك» بأنه فعل «ماينهى عنه» -أو يغضب له- الأب والأم.

والطفل في مرحلة الطفولة الوسطى يمكنه الاحتفاظ بتعليمات ومبادئ السلوك الأخلاقي من موقف لآخر. وبتزايد قدرة الطفل على ما يتعلمه من

موقف لموقف آخر، يحل المفهوم العام لما هو صواب وما هو خطأ، وما هو حلال وما هو حرام، محل القواعد المحددة. وتحل المعايير الداخلية تدريجياً محل الطاعة للمطالب الخارجية، ويزداد إدراك الطفل لقواعد السلوك الاجتماعي القائم على الاحترام المتبادل.

وفي الطفولة المتأخرة تتغير المفاهيم الخلقية للأطفال بازدياد علاقتهم بالآخرين الذين تختلف قيمهم الأخلاقية عن مفاهيم الآباء. وتتحدد الاتجاهات الأخلاقية للطفل في ضوء الاتجاهات الأخلاقية السائدة في بيئته الاجتماعية، ويدرك الطفل في هذه المرحلة مفاهيم أخلاقية مجردة مثل الصدق والعدالة، ويمارسها بصفاتها مفاهيم عن التطبيق الأعمى للقواعد والمفاهيم.

وفي نهاية الطفولة المتأخرة يحقق الطفل نوعاً من التوازن بين أنانيته وبين السلوك الأخلاقي، وينمو ضميره الذي يتولى الرقابة الذاتية على السلوك.

وعندما يصل الطفل إلى مرحلة المراهقة يبدأ في تكوين ميثاقه الأخلاقي الخاص به، ويقترّب السلوك الأخلاقي للمراهق من السلوك الأخلاقي للراشدين الذين يعيش معهم.

٤-٣-٥ المبادئ الخلقية في الإسلام:

يتغير مضمون الأخلاق عند الغربيين عن مضمونها عند المسلمين لانفصالها عن الدين. أما مضمون الأخلاق عند المسلمين فهو مرتبط بالعتيدة الإسلامية التي هي أساس الأخلاق الإسلامية. وحيث أن الغرب استبدل الفلسفة بالدين فأصبحت الأخلاق لديه لا تنتسب إلى الدين أو التقوى، وإنما نسبوها للضمير.

والإسلام جاء بقواعد وأسس تجلب الخير للإنسان، وتحقق له السعادة في الدنيا والآخرة، وتبين له المثل العليا والقيم السامية التي ترفع من شأن الإنسان

المسلم . ويشتمل القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة على كثير من الآيات والأحاديث التي تحث المسلم على التمسك بالأخلاق الفاضلة . وفيما يلي نذكر أهم المبادئ الخلقية في الإسلام .

أ- التوحيد: فالتوحيد هو الإيمان بالله الواحد القهار الذي لا شريك له في ملكه ، وهو العزيز الحكيم . ومن ثم فإن التوحيد من مقومات الأخلاق بمفهومها الإسلامي .

ب- الحرية: كفل الإسلام الحرية لجميع المواطنين والأمة ، وجعلها من أسس التضامن الاجتماعي في المجتمع . وجعل الحرية مناط التكليف في كثير من الأحكام . وهذه الحرية تعني اعتناق الإنسان من عبودية أخيه الإنسان ، وانعتاق الشعوب من الشعوب الأخرى لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ . ومعنى ذلك أن الإسلام يؤيد الحرية في كل شيء ، حرية الذات ، وحرية المأوى ، وحرية الاعتقاد ، وحرية الرأي ، وحرية التعليم ، وحرية التملك .

ج- العدالة: تعتبر العدالة من مقومات الأخلاق الإسلامية ، وذلك لضرورتها في تنظيم المجتمع . حيث إنها تؤدي إلى حفظ كرامة الإنسان ، ونشر الأمن ، وتضامن الأفراد في المجتمع .

د- الإخاء: يعتبر الإسلام المواطن المسلم أخا للمسلم مهما بعدت المسافة ومهما طال الزمن لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ . والأخوة تقوم على الإيمان ، بل هي شرط من شروط الإيمان لقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وقوله أيضاً : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » . والأخوة توجب التعاون والتكاتف في الشدائد والمحن .

هـ- المساواة: من أهم مبادئ الإسلام المساواة، وهي لا تكمل إلا بالخلق الحسن. فالإسلام لا يفضل أحداً على أحد حاكماً كان أو محكوماً إلا بالتقوى والعمل الصالح لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، ويرفض الإسلام التفرقة العنصرية؛ لأن الناس جميعاً خلقوا من نفس واحدة. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

و- الحق: يطلق القرآن الكريم كلمة الحق على الإسلام. فالإسلام هو العقيدة الصحيحة التي تدعو إلى التمسك بالأخلاق الحميدة من أجل إقامة المجتمع الفاضل.

٥- أساليب التربية الدينية للأطفال :

يجمع المربون -على اختلاف مذاهبهم وأساليبهم- على تنمية الإحساس الديني لدى الأطفال، كما يعتبرون التربية الخلقية للصغار مظهراً من مظاهر التربية الدينية. وقد قرر الإسلام أن بقاء الأمم وازدهار حضارتها يتحقق بصلاح أخلاقها، فاذا سقط الخلق سقطت الدولة.

والعقيدة الإسلامية تحث على تعليم الأطفال تعاليم الدين منذ الطفولة. والمؤرخون يؤكدون أن غرض التربية عند المسلمين كان تهذيب النفوس وتحصيل الفضيلة - يدل على ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام أرسل لهداية الناس وتأديبهم بأدب القرآن فكان أول معلم في الإسلام وقد أثر عنه قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وما يميز التربية الإسلامية أنها لم تكن دنيوية محضة، كما كانت التربية اليونانية أو الرومانية، كما أنها لم تكن تربية دينية خالصة، كما كانت التربية المسيحية في صدرها الأول، وإنما هي تربية دينية ودنيوية معا تهدف إلى إعداد

المرء للحياة الدنيا والآخرة. وفي القرآن الكريم، والحديث الشريف، وآثار السلف ما يؤكد ذلك. فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾. وقد ورد في الأثر: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً». وقال ﷺ: «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه».

وعند استعراضنا لأساليب التربية الدينية للأطفال في المجتمع الإسلامي سوف نناقش أولاً واجب الآباء نحو أبنائهم، وثانياً منهج العلماء المسلمين في التربية الدينية والخلقية، وأخيراً الأساليب التي تحقق التربية الدينية والخلقية.

٥-١ واجب الآباء نحو الأبناء:

أودع الله سبحانه وتعالى في قلب ونفس الآباء مشاعر متألفة من الحب والحنان والعطف والشفقة نحو أطفالهم. وهذه المشاعر هي التي تدفع الآباء إلى احتضان الأبناء وتربيتهم، وتهذيب أخلاقهم، وحمايتهم والاهتمام بهم، ليكونوا أفراداً صالحين. ولولا هذه المشاعر النبيلة لما تحمل الآباء التعب والمشقة والعناء لرعاية مصالح أبنائهم.

والطفل إذا ما خرج إلى الحياة ووجد والديه على وفاق تام وانسجام متكامل، نشأ في أحضان الهدوء والطمأنينة، وكان لذلك أثره الإيجابي على حياة الطفل. أما إذا وجد الطفل نفسه في جو عائلي مضطرب متفكك يسيطر عليه الانحلال والاستهتار بالقيم الخلقية، فإنه سوف ينشأ قلق النفس مضطرب الفكر متناقض السلوك.

والوضع الثقافي والتعليمي للوالدين يؤثران تأثيراً إيجابياً وفعالاً في تربية الطفل. إذ أن مستوى تفكيرهما، وميلهما للقراءة والاطلاع سواء أكان في

الكتب أم المجلات أم الصحف اليومية، والاستماع إلى البرامج الدينية والثقافية، وحضور الندوات والمناقشات، يؤثر في تنمية الوعي الديني والثقافي، ويعمل على ثموه نموا هادفا يعينه على سرعة التكيف مع الوسط الاجتماعي المحيط به.

والإسلام كرم الطفولة، وأكد حقها في الحياة والحب والرعاية، وحقها في التربية المتكاملة قبل أن يتنبه المجتمع العالمي لحقوق الطفل بآلاف السنين. ونظم المنهج الإسلامي العلاقة بين الآباء والأطفال بحيث يؤدي كل منهما دوره تجاه الآخر. ويمكن تلخيص ما يجب على الآباء حيال أبنائهم فيما يلي:

أ- تخير الأسماء الحسنة: تقرر الشريعة الإسلامية أن من حقوق الطفل على والديه أن يحسنا اختيار اسمه الذي سيدعى به بين الناس مستقبلاً. ولقد جاء توجيه الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم» وقال ﷺ: «تسموا بأسماء الأنبياء، وأحب الأسماء إلى الله: عبدالله وعبدالرحمن، وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة». ويستحب أن تكون تسمية المولود في اليوم السابع من عمره لقوله عليه الصلاة والسلام: «كل غلام مرتهن بعقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه ويسمى».

ب- الإنفاق: واجب الآباء الإنفاق على أبنائهم طعاماً وكسوة حتى يبلغوا مبلغ الرجال. والشريعة الإسلامية تهتم بالرضاعة الطبيعية حولين كاملين، وجعلت ذلك حقاً من حقوق الطفل. وألقت على الأب مسؤولية إمداد الأم بالغذاء والكساء حتى تتفرغ لرعاية طفلها وتغذيته. وكل من الوالدين يؤدي واجبه ضمن الإطار الذي رسمته الشريعة. وفي حدود طاقتهم وإمكانياتهم قال تعالى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ج- تعليم أمور الدين: أوجبت الشريعة الإسلامية تعليم الأبناء أمور دينهم ليعرفوا الحلال والحرام، ويدركوا حكمة الفروض، ويمارسوا العبادات ممارسة صحيحة ويدأوموا على أدائها باخلاص، ويتدبروا قدرة الله وعظمته ويخلصوا له العبادة.

وعلى الآباء أن يوضحوا للأبناء أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل إلا الأعمال المتقنة المراد بها وجهه الكريم مصداقاً لقول رسول الهدى محمد صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، وابتغي به وجهه».

د- التأديب: يجب على الآباء أن يحسنوا تربية أولادهم وتأديبهم وتعويدهم العادات الإسلامية والآداب الاجتماعية الفاضلة. وقد وردت النصوص الكثيرة في تربية الأبناء من قبل الآباء والإحسان إليهم، مما يؤدي إلى بناء الأسرة على أسس سليمة تساعد على ازدياد قوة المجتمع وتكافله وتعاونه. وصدق رسول الله ﷺ حين يقول: «الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم»، وفي قوله أيضاً: «الرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها».

ومن واجب الآباء أن يحرصوا على غرس الأخلاق الفاضلة في نفوس الأبناء وتعويدهم العادات الكريمة والتقاليد المألوفة، وتجنبهم مساوئ الترف والنعم وقول السوء، وفي ذلك يقول الغزالي: «أن يؤدبه ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعودوه التمتع بل يعودوه الخشونة في المطعم والملبس والمفرش، ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية، ليضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد».

ويحفظ النبي صلى الله عليه وسلم الآباء على حسن تربية أطفالهم فيقول في بيان فضل تربية الأبناء وتهذيبهم: «مانحل والد ولده أفضل من أدب حسن». ويقول عليه الصلاة والسلام: «لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن

يتصدق بصاع». ويقول كذلك: «رحم الله والدأ أعان ولده على بره». ويقول ﷺ: «من عال ثلاث بنات فأدبهن، وأحسن إليهن، وزوجهن، فله الجنة».

وفي مجال تأديب الولد وتوجيهه إلى الخير يحدد الرسول الكريم خمس وصايا ويطلب تعليمهن والعمل بهن. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعملن بهن أو يعلم من يعملن بهن؟» قلت: أنا يا رسول الله. فأخذ بيدي فعد خمساً فقال: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحبه لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر من الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب».

هـ- المساواة والتلطف في المعاملة: تحث الشريعة الإسلامية الآباء على أن يسووا في المعاملة والعطية بين الأبناء، وأن يعدلوا بينهم في كل الأمور، لقوله ﷺ: «ساووا بين أولادكم في العطية، فإني لو كنت مؤثراً أحد لآثرت النساء على الرجال»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»، ويقول النبي الكريم موجهاً كلامه للأب «إن لهم عليك من الحق أن تعدل بينهم، كما أن لك عليهم أن يبروك». وذلك لأن شعور الأبناء بتمييز بعضهم عن بعض يؤدي إلى الغرور في نفس من يقدمانه على غيره، كما ينمي الحقد في نفس من يحرمه أو يؤخره عن أشقائه.

وتوجه الشريعة الإسلامية الآباء إلى الرأفة بالأبناء ومعاشرتهم باللطف وتقبيلاً عن شفقة، ورأفة، ومباستهم في الكلام. وقد حث الرسول الكريم الآباء على حسن معاملة الأطفال. ومن أقواله: «من كان له صبي فليتصابى له». وشجعهم على الدعاء للأبناء بالخير ودليل ذلك الحديث الشريف: «دعاء الوالد لولده كدعاء النبي لأُمَّته».

وقصص معاملة الرسول عليه السلام للأطفال لا تعد ولا تحصى . وهي نماذج للاقتداء بها . فكان ﷺ يخاطب الصغير منهم بما يثير اهتمامه . فقد روى البخاري أنه كان لأنس أخ فطيم يدعى أبا عمير له عصفور مريض اسمه النغير فكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يلاطف الطفل الصغير ويقول له : «يا أبا عمير ماذا فعل النغير» ، وكان الطفل يبش لمداعبة الرسول له رغم حزنه على عصفوره المريض . وفي هذا المجال حكايات كثيرة وحسبنا منها أن الرسول عليه الصلاة والسلام أطل السجود يوما حتى ظن من خلفه أنه قضي عليه ، فلما سأله عن سبب إطالته قال : «ارتحلني ابني فكرهت أن أعجله» .

والاعتدال في التربية الدينية للأطفال ، وعدم تحميلهم ما لا طاقة لهم به من النوافل ، من الأمور المشجعة لهم على نمو إحساسهم الديني . قال الرسول عليه الصلاة والسلام : «إن هذا الدين متين ، فأوغلوا فيه برفق ، ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباد الله» .

٥-٢ منهج العلماء المسلمين في التربية الدينية:

اعتنى علماء المسلمين بحسن الخلق ، وأدركوا مدى تأثيره في إعداد المواطنين الصالحين نفسيا واجتماعيا . ويركز ابن سينا على ضرورة تعلم الطفل العادات الدينية الصحيحة من مخالطة الآباء والأمهات والمعلمين ، إذا كانوا قدوة حسنة ، ونماذج طيبة للخلق الكريم .

ويرى ابن سينا أن التربية الخلقية تبدأ من الفطام ، ونصح بالبداية في تكوين عادات طيبة عند الأطفال منذ الثالثة من أعمارهم لإدراكه لأهمية الدور الذي تؤديه العادات في حياة الفرد . ولهذا فهو يحث المربي على ضرورة الإسراع في تكوين عادات طيبة قبل أن تتسرب إليه العادات المذمومة من المخالطين من قراء السوء لأن الطفل بطبيعته مولى بالتقليد والمحاكاة .

وابن سينا يضع أمامنا صورة متكاملة عن أساليب تربية الولد فيقول : «إذا اقتضت الضرورة الالتجاء إلى العقاب ، فينبغي مراعاة الحيلة والحذر ، فلا يؤخذ الوليد بالعنف ، وإنما بالتلطف ، ثم تمزج الرغبة بالرهبة . فتارة يستخدم العبوس ، وتارة التأنيب ، وتارة يكون المديح» . ويؤكد ابن سينا أن أسلوب التشجيع أفضل وأجدى من التأنيب ، ولكل طفل حالة معاملة خاصة ، ولكن إذا أصبح من الضروري الالتجاء إلى الضرب فينبغي ألا يتردد المربي في ذلك . على أن تكون الضربات الأولى موجعة ، ولكن بعد التهديد والوعيد وتوسط الشفاعة لإحداث الأثر المطلوب في نفس الصبي .

أما الغزالي فإنه يقصر وظيفة التربية على الغرض الديني والغرض الخلقي . فهو يرى أن الفضيلة والتقرب إلى الله تعالى من أهم أغراض التربية ، ويؤمن بأن الطفل يولد معتدلاً صحيح الفطرة ، وأن أبويه يعطيانه دينهما أياً كان ، كما يتطبع الطفل بالطباع الرديئة ، ويتعلم رذائل الخصال من البيئة التي يعيش فيها ، بل ومن الطريقة التي يعامل بها ، ومن العادات التي يتعودها .

وينصح الغزالي بأن يربى الطفل تربية دينية علمية عملية منذ صغره ، فيفهم كيفية الوضوء ، ويتعلم الصلاة ، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان حينما يستطيع الصيام ، ويشجع على التصديق على المحتاجين حتى يعتاد الصلاة والصوم والتصديق فيستمر عليها وهو كبير .

ومنهج التأديب عند الغزالي يقوم على تعويد الطفل الخشونة في المأكل والمشرب والملبس ، وتدريبه على المشي والحركة على أن يعطى فسحة من الوقت للعب كي يستريح من التعب . أما تربية الطفل العقلية فتقوم على دراسة القرآن الكريم والأحاديث والأخبار وحفظ الشعر . أما تربيته الوجدانية فتقوم على سرد حكايات الأبرار على مسامع الصغار حتى يدرج على حب الصالحين والاقتراء

بهم . وفي رأيه أنه لابد من تعريف الطفل بالمثل العليا في الإسلام وتعويده على الصفات الحميدة كالصدق والتواضع والأمانة واحترام الكبير وإكرام الصغير ، كما يدرب الطفل على حسن الاستماع وطاعة الله ورسوله ، والوالدين والمعلمين مع تجنب اللغو في الكلام .

وينصح الغزالي المعلم بأن يتبع طريقة التعريض لا التصريح في زجر التلاميذ ونهيهم عن قبيح الأعمال ، «لأن التوبيخ يهتك حجاب الهيبة ويورث الجراءة في الهجوم على الخلاف ، ويثير الحرص على الإصرار ، ولأن التعريض يجعل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية قادرة على استنباط معانيه ، وبذلك يفيد المتعلم من فرح التفتن لمعناه ، رغبة في العلم بأسبابه» .

ويوجه الغزالي المربي إلى مدح الصبي وتكريمه على أفعاله الحسنة على أن يتم ذلك أمام ذوي الشأن . أما إذا ارتكب الطفل فعلاً مذموماً فمن الأفضل أن يتغافل المربي عن ذلك إذا لاحظ على الصبي استحياء ومحاولة لتغطية ما بدر منه لأن مكاشفته تؤدي إلى الجراءة والجسارة فلا يخشى تكرار فعلته المذمومة . وعندما يكثر الطفل من الأخطاء الخلقية ، فيجب على المربي معاتبته سرا ، ويحذره من تكرار أفعاله ، فإذا لم يرتدع يهدده بالكشف أمام الناس . والغزالي من الذين لا ينصحون بالتمادي في العقاب والتأنيب .

أما ابن تيمية فيرى ضرورة دراسة المتعلم الحد الكافي من القرآن الكريم والسنة الشريفة وبعدها ينتقل إلى الشريعة ومباحث الفقه ليدرس منها الموضوعات التي تتطلبها التكليف الشرعي من العبادات في مرحلة العمر التي تقتضيها .

وتنقسم طرق وأساليب التربية عند ابن تيمية إلى قسمين رئيسيين هما :
الطريقة العلمية ، وطريقة الإرادة ، وأساس ذلك التقسيم أن للقلب قوتين هما :

قوة التفكير وقوة الإرادة، والأولى تساعد الطفل على المعرفة والعلم، والثانية تحرك الطفل لتطبيق هذا العلم وتحويله إلى سلوك.

ويحدد ابن تيمية ثلاثة أساليب للطريقة العلمية :

أ- أسلوب الحكمة: وهي معرفة الدين والعمل به، ويتضمن التمييز بين المأمور والمحظور، وبين الأعمال الحسنة من القبيحة، والخير من الشر، والحق من الباطل، وتعلم الحق دون الباطل.

ب- الموعظة الحسنة: وبها يوجه المعلم أولئك الذين يؤمنون بالعقيدة الصحيحة ولكن لا يمارسونها.

ج- والجدال الأحسن: وبه يربي المعلم أولئك الذين لا يؤمنون بالعقيدة الصحيحة ولا يمارسونها.

وهذه الأساليب الثلاثة التي أمر بها النبي الكريم عليه الصلاة والسلام أن يدعو بها إلى سبيل ربه وهي أساليب نافعة في العلم والعمل.

ويحدد ابن تيمية أربعة أساليب في تربية الإرادة وهي :

أ- دراسة القرآن الكريم وفهمه، فذلك يزيل الشبهات والشهوات من خلال ما يرد فيه من العلم والحكمة والموعظة. وفي ذلك يقول ابن تيمية: «القرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، حتى يصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي».

ب- الصدقة والإنفاق: لأن إنفاق المال بالصدقة يطفى الخطيئة، كما يطفى الماء النار، ولذلك، يقول تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾.

ج- ترك الفواحش والمعاصي: لأنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن. فإذا تخلص البدن من هذه الأخلاط عاد إلى حالته الطبيعية.

د-العبادات: التي تنظم علاقات الإنسان وتوجهها وجهة إسلامية . ويعرف ابن تيمية العبادة بأنها : «اسم جامع لكل ما يحب الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة» . فالصلاة والصيام، الزكاة والحج ، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له ، والصبر على حكمه ، والشكر على نعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وحب رسوله ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهد للكفار والمنافقين ، والإحسان إلى الجار اليتيم والمسكين وابن السبيل ، والدعاء والذكر كلها تعد من العبادة .

وهكذا يتضح اهتمام الرواد الأوائل بالتربية الدينية والخلقية . ويتفق هؤلاء الرواد على ضرورة تعليم الأطفال القرآن الكريم والصلاة والدعاء ، ويعتمدون في التربية الخلقية على القدوة الحسنة والتقليد والإيحاء بالسلوك الطيب ، ويتفقون على تشجيع الطفل وترغيبه في اتباع السلوك الحميد ، ويعتبرون العقاب الوسيلة الأخيرة في تأديب الطفل .

٥-٣ الأساليب التي تحقق التربية الدينية والخلقية:

يستخدم المنهج الإسلامي لتنمية الإحساس الديني والتربية الخلقية عدة أساليب نجملها فيما يلي :

٥-٣-١ أسلوب الممارسة:

ويقصد به التربية من خلال العمل . وهو أكثر الأساليب فعالية ، فالتربية تكون فعالة إذا ارتبطت بأنماط سلوكية يمارسها الطفل ، ولا سيما السلوكيات المرتبطة بالدين لغرس الأخلاق الإسلامية في الأطفال . ويجد المربي في الفرائض

الدينية فرصاً مواتية للتربية الخلقية للطفل وتوجيهه نحو الأهداف السامية .
والرسول عليه الصلاة والسلام كان يراقب أصحابه ويتركهم برهة ليطبقوا تعاليم
الإسلام ، ثم يصحح أخطاءهم حتى يتعلموا بالممارسة والتجربة .

٥-٣-٢ أسلوب التذكير والتواصي :

ويستند هذا الأسلوب إلى أن المسلم كما هو «رعية» هو في الوقت نفسه
«راع» ، بمعنى أن كل مسلم عليه أن يذكر أخاه ويوصيه بفعل الخير واجتناب
الشر . وهذا يعني أن يقوم المسلم بتربية أخيه المسلم ، ومن هنا يحث الإسلام على
ضرورة التذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والصبر .
والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُتَفَعُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

٥-٣-٣ استخدام الأساليب الحسية :

ضرب الأمثلة الحسية من الأساليب الرئيسة في مجال التربية الدينية . وقد
استخدم على نطاق واسع في القرآن الكريم .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ
طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ
الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

وكان ﷺ يكثر من الأمثلة الحسية لإيضاح المعاني والرموز وتقريبها إلى
الأذهان . فمثلاً كان عليه الصلاة والسلام يرسم خطأ في الرمال ، وخطين عن
يمينه ، وخطين عن يساره ، ثم يمثل للصحابه بالأول «سبيل الله» والخطوط الجانبية
«سبل الشيطان» ويتلو قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا
السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

٥-٣-٤ أسلوب الاستجواب والحوار:

وهو عبارة عن توجيه عدد من الأسئلة للمخاطب تقوده إلى أن يتوصل للحقيقة . واستخدم القرآن الكريم هذا الأسلوب بطريقة مقنعة ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝﴾ .

والرسول عليه الصلاة والسلام استخدم الاستجواب والحوار للوصول إلى فكرة معينة ، ولإبراز معنى استعصى على المسلمين ، فكان يسأل الصحابة عن أمر ما ، فإذا عجزوا أجاب عنهم وعلمهم . وعلى سبيل المثال سأل الصحابة يوماً قائلاً : «أتدرون من المفلس؟» فقالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : «المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار» .

٥-٣-٥ التربية بالقدوة:

القدوة الصالحة لها أهمية كبرى في تربية الأطفال وتنشئة الأجيال على أساس سليم من الإيمان والتقوى . وهي أفضل الوسائل وأقربها إلى النجاح . وقد بعث الرسول عليه الصلاة والسلام ليكون أفضل قدوة للبشرية في تاريخها الطويل ، وكان مربياً وهادياً ومعلماً .

والقرآن الكريم يشير في كثير من آياته إلى القدوة الحسنة باعتبارها من الأساليب الفعالة في دفع النشء إلى التماس الصراط المستقيم الذي يرسمه لهم

المربون في حياتهم العملية والاجتماعية. يقول عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. ويبغض الإسلام اتباع القدوة غير الحسنة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ (٢٨) ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾.

ولابد للطفل من قدوة حسنة في أسرته كي يتشرب منذ طفولته المبادئ الإسلامية، كما ينبغي أن يكون المجتمع قدوة حسنة حيث تعمل جميع مؤسساته على تطبع الأطفال بطابع الإسلام وتقاليده وقيمه.

٥-٣-٦ أسلوب الترغيب والترهيب:

يعتبر أسلوب الثواب والعقاب من الأساليب الطبيعية التي تستند إليها التربية في كل زمان ومكان. فالإنسان يتحكم في سلوكه ويعدل قراره بمقدار معرفته بالنتائج الضارة أو النافعة، السارة أو المؤلمة، التي تترتب على عمله وسلوكه.

والتربية الإسلامية تستخدم أسلوب الترغيب والترهيب لما له من أهمية بالغة في التنشئة الدينية والخلقية للأطفال. والقرآن الكريم يشير إلى السلوك الطيب بنتائجه الطيبة، ويربطه بالجنة، وفي المقابل يشير إلى السلوك السيئ ويؤكد نتائجه السيئة، ويربطه بأهوال الجحيم وعذاب جهنم.

وعلى الرغم من أن الترغيب والترهيب فعلا زمان في هذا الأسلوب، إلا أنهما يختلفان في الأثر الذي يحدثه كل منهما ولذلك يفضل الإسلام استخدام أسلوب الترغيب أولا بدلا من الوعيد لأنه إيجابي وأثره باق، ويعتمد على استشارة الرغبة الداخلية للإنسان. أما أسلوب الترهيب فهو أسلوب سلبي ونتائجه محدودة ويعتمد على الخوف.

٥-٣-٧ التربية بالأحداث:

البشر في الحياة الدنيا في تفاعل دائم مع الأحداث . والمربي لا يترك الأحداث تذهب سدى بغير عبرة ، وبغير توجيه ، وإنما يستغلها في تربية النفوس وتهذيبها . والقرآن الكريم كانت بعض آياته تنزل في المناسبات ، وخاصة الآيات التشريعية التي تأتي عند الحاجة .

ويمكن الاستفادة من الأحداث المحيطة بالطفل في المنزل ، أو في رياض الأطفال في تعليم الصغار الحقائق الدينية التي تناسب قدراتهم العقلية . واستغلال المناسبات الدينية -على سبيل المثال هجرة الرسول ، وشهر رمضان المبارك ، والعيدين ، والحج- في توضيح بعض أمور الدين للأطفال .

٥-٣-٨ الأسلوب القصصي:

القصص في القرآن الكريم يتناول مختلف الميول والمشاعر والأحاسيس الإنسانية ، وأهمها القصص التي تنطوي على إعلام الناس بالعلاقة بين الله والإنسان بشكل مباشر أو غير مباشر عن طريق نبي أو رسول . وكل قصة من القصص القرآني تمثل فترة مهمة من تاريخ البشرية . ويجب على المربي أن يستغل القصص القرآنية في تهذيب النفس وتنمية الحس الديني عند الأطفال ، وتقوية الحس الخلقي والقيم الخلقية الإسلامية .

والطفل عندما يجد نفسه بطلا في القصة التي تدور حولها الأحداث الواقعية ، يتحرر من دافعه وحدوده التي يعيش فيها إلى عالم واسع فسيح يعيش فيه مع الأنبياء والقادة والزعماء . وحين يعيش الطفل في جو القصص النبوية القرآنية ، يعيش أحداثها بما فيها من تربية وتعليم إلى جانب المتعة والراحة النفسية .

وتتوقف قدرة المربي على استخدام الأسلوب القصصي في التربية الدينية والخلقية على ثقافته الواسعة، وقدرته على اختيار القصص التي تناسب المواقف التي يمر بها الطفل، واستخدام لغة وأسلوب ومصطلحات تتلاءم مع نضج الطفل العقلي ليسهل إدراكها، وتحقيق الهدف المنشود من الأسلوب القصصي وهو التجاوب الروحي، وتعلم المبادئ، واكتساب القيم، وتعود الأنماط السلوكية للخلق الإسلامي.

